هربرت فِشر ومعالجته للحملة الفرنسية على مصر
دراسة نقدية

إعداد
دكتور/ طارق السيد سليم

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الآداب ـ جامعة المنوفية

المستخلص:

يعالج هذا البحث إشكالية مدى ما تستحقه كتابات كثير من المؤرخين الغربيين من هالة التقدير التي اعتاد كثير من الباحثين العرب أن يمنحوها إياهم؛ من خلال دراسة نقدية لأحد أقطاب المؤرخين البريطانيين وهو هربرت فِشرHerbert Fisher(1865-1940م)، لدى معالجته موضوعا شديد الإثارة وهو الحملة الفرنسية على مصر (1798-1801م).

وفشر مؤرخ غزير الإنتاج يحظى بمقام رفيع لدى كثير من المؤرخين. وعلى طاولة البحث والنقد والمراجعة سنرى مدى جدارته بما وُصف به: (البحث الدقيق، والتنزه عن الهوى، الاتزان، النضج، الإبداع، العلم الغزير، الموضوعية). وقد وقع الاختيار على موضوع واحد فقط وتتبع معالجته له في كتابين من أشهر كتبه وأكثرها تداولا؛ الأول:(نابليون) Napoleon، والثاني وهو كتابه الأشهر: (تاريخ أوربا) A History of Europe.

ولدى مراجعة الباحث النقدية لمعالجة فشر وجد أن المسائل التي يمكن أن يستدركها عليه عديدة؛ فانتخب منها ما رأى أنها الأجدر بالمراجعة والنقد؛ لكيلا يتضخم البحث. وتجدر الإشارة أيضا أن الباحث لن يكتفي برصد المسائل التي يستدركها على فشر فقط؛ بل سيجتهد في البحث عن الأسباب والعلل الكامنة التي كانت وراء معالجته على النحو الذي جاءت عليه. وفي الاستدراك على فشر سيعول الباحث قدر الإمكان على شهادات غربية وخاصة الفرنسية منها؛ حيث يَصعُب أن يُرمى قائلوها بالتحامل على بلادهم؛ فهذا أقوى في الحِجاج وأقطع للجاج؛ حين يشهد شاهد من أهلها، والشهود الذين تم الاستناد إليهم كثير منهم؛ علماء شاركوا في الحملة، وسجلوا مشاهداتهم في موسوعة (وصف مصر)، ومنهم قادة وجنود دونوا مذكراتهم، فضلا عن تاريخ الجبرتي وكتاب نقولا الترك. إضافة إلى كتابات لمؤرخين غربيين مشهود لهم بالعمق في دراساتهم مثل: جوستاف لوبون، وأندريه ريمون، وهنري لورانس، وبيتر جران، وكرستوفر هيرولد، وغيرهم. فضلا عن علماء مصريين ضربوا بسهم وافر في دراسة حملة نابليون على نحو ما سيرد في ثنايا البحث.

ومن خلال البحث سيبدو بجلاء إلى أي قدر كان لدى فشر في معالجته-لموضوع الحملة الفرنسية على مصر- العمق المأمول والموضوعية المنشودة.

الكلمات الافتتاحية:

أقطاب المؤرخين البريطانيين- هربرت فِشر- الحملة الفرنسية على مصر- تاريخ مصر الحديث- تاريخ أوربا الحديث- مراجعات – دراسات نقدية

مقدمة

يعالج هذا البحث إشكالية مدى ما تستحقه كتابات كثير من المؤرخين الغربيين من هالة التقدير التي اعتاد كثير من الباحثين العرب أن يمنحوها إياهم؛ من خلال دراسة نقدية لأحد أقطاب المؤرخين البريطانيين وهو هربرت فِشرHerbert Fisher(1865-1940م)، لدى معالجته موضوعا شديد الإثارة وهو الحملة الفرنسية على مصر (1798-1801م).

لم يحظ كثير من المؤرخين الغربيين بمكانة كتلك التي حظي بها فشر، وأمثل ما يمكن الاستشهاد به للاستدلال على ذلك ما ذكره المؤرخ الرائد محمد شفيق غربال (1894-1961م) لدى تقديمه لكتاب (تاريخ أوربا في العصر الحديث) لهربرت فشر في نسخته المترجمة؛ حيث ذكر في حيثيات اختياره لترجمته بأنه كتاب "جيد في التاريخ الأوربي" ويحقق الرغبة في تجنيب القارئ العربي "البلبلة" التي يمكن أن تصيبه لدى مطالعة كتب عديدة فاضت بها المطبعة العربية عن تاريخ أوربا، وتابع مُطريا تميز المؤرخين الإنجليز -ومنهم فشر- فقال: "الكتب الإفرنجية في التاريخ الأوربي عديدة وقيمة؛ بيد أنّا آثرنا أن ننقل كتاب مؤرخ إنجليزي؛ فالإنجليزي أوربي، وغير أوربي؛ أوربي بحكم أن بلاده قطعة من الحضارة الأوربية، وغير أوربي بحكم أن حصته من العالم الأوربي قد انطبعت بطابعها الإنجليزي الخاص". وختم غربال ثناءه على كتاب فشر قائلا: "كسب الناس تاريخا متزنا ناضجا مطمئنا"[1].

وثمة إطراء ثان لفشر بأنه "صاحب المباحث العويصة البديعة"[2]. ووصف ثالث بأنه "علم من أعلام المؤرخين في العصر الحديث...خلف من الآثار العلمية والأبحاث التاريخية الممتازة، ما يشهد له بالعلم الغزير والبحث الدقيق والتنزه عن الهوى"[3]. ونختم بوصف رابع يُعَدُّ كذلك من أمثل ما يُستشهد به لبيان مكانة فشر لدى الباحثين والمؤرخين العرب ما قدمه به المؤرخ الرائد محمد مصطفى زيادة (1900-1968م) -الذي ترجم كتاب (نابليون) لهربرت فشر- بعد مقدمة حافلة بالثناء؛ فكان من حيثيات اختياره هذا الكتاب لترجمته أنه يُعد من الكتب الضرورية لتدريس التاريخ الحديث في المدارس المصرية...ولأنه "مكتوب في نغمة موضوعية متوخية تدوين ما لنابليون وما عليه...من زاوية إنجليزية علمية معتدلة"[4].

مما سبق يبدو بجلاء أننا إزاء مؤرخ غزير الإنتاج يحظى بمقام رفيع لدى كثير من المؤرخين. وهو الأمر الذي يعطي لكتاباته قدرا كبيرا من الأهمية والخطورة في آن معا. وعلى طاولة البحث والنقد والمراجعة سنرى مدى جدارة فشر بهذه الصفات (البحث الدقيق، والتنزه عن الهوى، الاتزان، النضج، الإبداع، العلم الغزير، الموضوعية).

ومن ثم؛ فهذا البحث يتخذ من فشر -المؤرخ الذائع الصيت- أنموذجا لكثير من المؤرخين الغربيين؛ لما يحظى به من مكانة بوّأه إياها مؤرخونا. ونظرا لصعوبة وضع كل مؤلفاته على طاولة البحث والنقد والمراجعة ورصد كل ما يمكن استدراكه[5] عليه فيها -حتى لو كان من خلال كتاب واحد من مؤلفاته- لكثرة ذلك، ولما يتطلبه هذا من مؤلَف ضخم لا يتسع له المقام؛ فقد وقع الاختيار على موضوع واحد فقط وتتبع معالجته له في كتابين من

---

[1]- محمد شفيق غربال: في تقديمه لكتاب هربرت فشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث، 1789-1950، تعريب أحمد نجيب هاشم، و وديع الضبع، دار المعارف، القاهرة، ط 9، 1993م، ص (ز).

[2]- أحمد حافظ عوض: فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت في مؤصر، مطبعة مصر، 1925م، ص91.

[3]- أحمد نجيب هاشم و وديع الضبع: في مقدمة تعريب كتاب هربرت فشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث، 1789-1950، المرجع السابق، ص (ز).

[4]- محمد مصطفى زيادة: في تقديمه كتاب هربرت فشر: نابليون، ترجمة: محمد مصطفى زيادة ومحمد نوفل، دار الفكر العربي، القاهرة، 1952، ص ص (ح، ط).

[5]- استدرك عليه: أصلح خطأه أو أكمل نقصه، أو أزال عنه لبسا، المعجم الوسيط، ج1، ط3، مجمع اللغة العربية، القاهرة، 1985م، ص291. ومن هنا جاءت تسمية كتاب المحدث والمؤرخ الحاكم النيسابوري (المستدرك) حيث جمع فيه الأحاديث التي استدركها على البخاري ومسلم.

أهم وأشهر كتبه وأكثرها تداولا. أما الموضوع؛ فهو الحملة الفرنسية على مصر -كما سبق الذكر- وأما الكتابان فهما:

1-Fisher, H.: Napoleon.
2-Fisher, H.: A History of Europe.

وعلى الرغم من أن الكتابين مترجمان إلى العربية؛ إلا أن الباحث تحريا للأمانة والدقة؛ اعتمد على النص الأصلي بالإنجليزية للكتابين؛ إذ إن هناك تحفظات على تصرف المترجمين في الترجمة -على نحو ما سيرد في البحث- تصرف حرَّف المعنى الذي كتبه المؤلف كثيرا. وهذا من فوائد العودة للنص الأصلي. والكتاب الأول عنوانه: (نابليون) ترجمة د. محمد مصطفى زيادة ومحمد نوفل. والكتاب الثاني الذي تناول فيه فشر موضوع الحملة الفرنسية -وإن كان بإيجاز- هو كتابه الأشهر: (تاريخ أوربا في العصر الحديث)، الذي قدم له محمد شفيق غربال. وغني عن البيان أن وضع مثل هذين الاسمين (شفيق غربال ومصطفى زيادة) على هذين الكتابين المُترجَمَين بهذا الثناء -الذي سبق ذكره- يعطيهما مصداقية لدى كثير من الباحثين والقراء.

ولدى مراجعة الباحث لمعالجة فشر وجد أن المسائل التي يمكن أن يستدركها على فشر عديدة؛ فانتخب منها ما رأى أنها الأجدر بالمراجعة والنقد؛ لكيلا يتضخم البحث. وتجدر الإشارة أيضا أن الباحث لن يكتفي برصد المسائل التي يستدركها على فشر فقط؛ بل سيجتهد في البحث عن الأسباب والعلل الكامنة التي كانت وراء معالجته على النحو الذي جاءت عليه. وفي الاستدراك على فشر سيعول الباحث قدر الإمكان على شهادات غربية وخاصة الفرنسية منها؛ حيث يَصعُب أن يُرمى قائلوها بالتحامل على بلادهم؛ فهذا أقوى في الحِجاج وأقطع للجاج؛ حين يشهد شاهد من أهلها، والشهود الذين تم الاستناد إليهم كثير منهم؛ علماء شاركوا في الحملة، وسجلوا مشاهداتهم في موسوعة (وصف مصر)، ومنهم قادة وجنود دونوا مذكراتهم، فضلا عن تاريخ الجبرتي وكتاب نقولا الترك. إضافة إلى كتابات لمؤرخين غربيين مشهود لهم بالعمق في دراساتهم مثل: جوستاف لوبون، وأندريه ريمون، وهنري لورانس، وبيتر جران، وكرستوفر هيرولد، وغيرهم. فضلا عن علماء مصريين ضربوا بسهم وافر في دراسة حملة نابليون على نحو ما سيرد في ثنايا البحث.

هذا، وسيتم تناول مسائل البحث من خلال النقاط التالية:

- ترجمة موجزة لفشر
-المراجعة الأولى: موقف المصريين من الحملة لدى دخولها الإسكندرية
-المراجعة الثانية: موقعة إمبابة
-المراجعة الثالثة: رؤية فشر للمصريين وعقائدهم
-المراجعة الرابعة: نتائج الحملة ونشأة مصر الحديثة
-المراجعة الخامسة: عودة مصر لحضن أوربا!
-المراجعة السادسة: نشر نابليون الحرية ونموذج الحكم المتحضر

ترجمة موجزة لهربرت فشر:

وُلِد هربرت أ. ل. فشر في 21 من مارس 1865م في لندن. وكان والده يعمل سكرتيراً خاصاً في الفترة من سنة 1860 إلى 1870م لولي العهد البريطاني إدوارد السابع Edward VII(1901-1910م)، الذي كان عرّابا لفشر في المعمودية[6]، وكان فشر كثيراً ما يُدعى هو وإخوته إلى قصر مارلبُورو Marlborough، حيث يلعبون مع أطفال أمير ويلز Wales، دون أن يدركوا وقتئذ الشرف الذي نالوه بالاختلاط واللعب مع أطفال العائلة المالكة[7]. وكان مدينا لأمه بدور كبير في تشكيل شخصيته وتوجيهه؛ حيث كانت "معلمه الأول والأفضل"[8] حيث يقول عنها: "كانت والدتي قديسة من القديسات...كانت حياتها سلسلة من البذل والتضحية...أنجبت أحد عشر طفلا غمرتهم جميعا بفيض من عطفها...وكانت أفضل معلميّ وأولهم...أرضعتني حبا للتعلم وأكسبتني بهجة من الدرس والتحصيل لن تنسى". وقضى هربرت سنوات صباه الأولى في الريف الإنجليزي؛ إذ عُين والده قاضياً إقليميّاً، وحين بلغ الثالثة عشرة من العمر أرسله أبوه إلى كلية وِنْشسْتَرWinchester، حيث قضى بها ستة أعوام. وبما أن والده كان خريج أكسفورد؛ فآثر أن يبعثه إليها، فالتحق بها في 1884م، وعرضت عليه كليته عقب تخرجه فيها وظيفة مدرس بها؛ فقبلها، وعزم على تكريس حياته لتدريس التاريخ الحديث. ونصحه أحد مدرسي الجامعة بأن يولّي وجهه شطر باريس قائلا: "إن صولجان التاريخ قد انتقل نهائيّاً من المؤرخين الألمان إلى الفرنسيين". وأشير عليه باللحاق بمدرسة الوثائق Ecole des Chartres؛ فسافر إلى باريس في سنة 1889م، يحمل معه توصيات إلى المؤرخ الفرنسي إرنست رينان[9] Ernest Renan (1823-1892م)، والفيلسوف والمؤرخ الفرنسي إيبوليت تاين[10] Hippolyte Taine (1828-1893م)، وغيرهما من فحول أساتذة جامعة باريس فى ذلك الحين. وحط فشر رحاله في الحي اللاتيني[11]. ودرس في السوربون، ونظرا لإعجاب فشر كثيرا برينان وتاين، فقد أخذ يتردد على الاجتماعات الأسبوعية والندوات التي كانا يعقدانها بمنزليهما، والتي كانت تجمع أكبر رجال التاريخ والأدب فى فرنسا. ونمت بينه وبين المؤرخ الفرنسي إرنست رينان صلات المودة، ويرى شفيق غربال أنه كان لتلك الإقامة في باريس آثار عميقة في أساليب فشر

6- Ogg, D. : Herbert Fisher 1865 -1940: A Short Biography, Edward Arnold & Co, Copyright First published, London, ,1947,p. 9.

7- Murray, G.: Herbert Albert Laurens Fisher (article, Obituary Notices of Fellows of the Royal Society, Published By: Royal Society, Vol. 3, No. 10 , 1941, p.519.

8- Ogg, D. : op. cit. p. 16.

9- إرنست رينان: ولد في مدينة تريبه Tréguier الساحلية في شمال غربي فرنسا في ١٨٢٣م. ودرس بداية في مدرسة دينية، ثم حصل على منحة للدراسة في مدرسة سان نقولا دي شاردونيه. ومنها انتقل إلى معهد سان سلبيس St. Sulpice الديني لكي يتخرج منه قسيساً. بيد أن إيمانه بدأ يتزعزع في هذا المعهد تحت تأثير قراءة الكتب النقدية في تاريخ المسيح والأناجيل؛ فرأى أن الأسس التي تقوم عليها المسيحية واهية تاريخيا؛ فقرر ترك المعهد قبل أن يتم دراسته فيه. وتطلع إلى تحصيل الدرجات العلمية التي تؤهله للتدريس في الجامعة؛ فحصل على الليسانس من كلية الآداب في سنة ١٨٤٩م. وحصل على الدكتوراه في الآداب من السوربون في سنة ١٨٥٢م برسالة عن ابن رشد والرشدية. وعُيّن في سنة ١٨٦٢م أستاذا في الكولج دي فرانس في كرسي اللغات العبرية والسريانية والكلدانية. وفي سنة ١٨٨٣م أصبح رينان مديرا adminsurateur للكولج دي فرانس، واستمر يشغل هذا المنصب حتى وفاته في ١٨٩٢م. عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1984م، ص ص548-550.

10- إيبوليت تاين: أديب ومؤرخ تدل عناوين كتبه علي نوع كفاياته: منها (تاريخ الأدب الإنجليزي) في خمسة مجلدات ١٨٥٣م، و(الفلاسفة الفرنسيون الكلاسكيون في القرن التاسع عشر) في مجلدين ١٨٥٦م، و(المثل الأعلى في الفن) ١٨٦٧م، وكتابه الفلسفي المشهور (في العقل)، في مجلدين ١٨٧٠م، و(أصول فرنسا المعاصرة) في اثنتي عشر مجلداً، صدرت تباعا بعد سنة١٨٧٠م، ينصف فيها نظام الحكم القديم ضد الثورة وميولها. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، ط5، القاهرة، 1986م، ص371.

11- أحمد نجيب هاشم و وديع الضبع: المرجع السابق ص ص (ز،ح). و Ogg, D. : op. cit. pp. 20,28,31,35.

ومناهجه، وقيامه بدراسات مستفيضة حول تاريخ الثورة الفرنسية ونابليون[12]. وسيبدو هذا من خلال معالجاته لكثير من أحداث الحملة الفرنسية على مصر على نحو ما سيرد في البحث.

ثم رأى فشر أن يقضي فترة في جامعة ألمانية؛ حيث كان مهتمًا كثيرا بالتاريخ الألماني؛ فقصد جامعة جيتنجن Göttingen، درس اقتصاديات ألمانيا في القرون الوسطى، وقرأ كثيرا في الأدب الألماني، لا سيما في "جوته"[13] Goethe (1749-1832م). ثم قفل راجعاً إلى إنجلترا؛ حيث تقلد وظيفة محاضر التاريخ الحديث بجامعة شيفيلد Sheffield . ثم بدأ أبحاثه؛ فكان باكورتها: The Medieval Empire (إمبراطورية القرون الوسطى) سنة 1898م في مجلدين ثمرة الدراسة والبحث بشكل رئيس في المصادر الألمانية[14]. ثم وجه عناية خاصة إلى دراسة عصر بونابرت. وكتب عن التاريخ السياسي لإنجلترا. وتزوج في 1899م من تلميذته ليتيس إيلبرت Lettice Ilbert التي كانت طالبة تدرس التاريخ[15]. بعد تعارف ومودة بينهما أسفرت عن زيجة وُصفت بأنها كانت سعيدة بشكل استثنائي، حتى قيل إنه مدين بالكثير من سعادته لتلك الزوجة التي كانت مثقفة ثقافة عريضة، وكان لها دور في نجاحاته؛ حيث كانت تقدم له النقد البناء الذي أفاده كثيرا. وفي عام 1912م عين نائبا لرئيس جامعة شيفليد[16]. وهو بمثابة رئيس الجامعة الفعلي؛ إذ إن منصب رئاسة الجامعة من مناصب الشرف يُختار له أحد كبراء الإنجليز ممن يشاركون في الحياة العامة[17].

وفي خريف سنة 1916م دعاه لويد جورج Lloyd George (1916-1922م) - وكان حينئذ وزير الإنتاج الحربي في وزارة هربرت أسكويث H. H. Asquith (1908-1916م)- للإفطار معه، وأخذ يتبادل معه الرأي فيما يجب أن تكون عليه خريطة أوربا الجديدة بعد الحرب. وناقش معه شروط السلام، وعندما شرع لويد جورج في تأليف وزارته

---

[12]- محمد شفيق غربال: المرجع السابق، ص(د). وأحمد نجيب هاشم ووديع الضبع: المرجع نفسه، ص (ي). و Murray, G.: op. cit. p. 520.

[13]- يوهان جوته: نابغة الألمان وشاعرهم الأكبر، ولد في فرانكفورت ونشأ فيها ودرس في جامعة لايبزيج وحصل على إجازة في القانون، ومارس المحاماة، وأهم أعماله: قصة أحزان فرتر Die Leiden des Jungen werthers، التي بلغ بها ذروة مجده، وفاوست Faust، وأفيجيني Iphigenie، و(الجنة) حيث أبرز فيه شخصية الرسول محمد ﷺ تشع ضياء ونوراً، و(الديوان الشرقي للمؤلف الغربي) وغيرها من الكتب والروايات. وكان جوته متبحراً في تاريخ الكنيسة الأوروبية؛ وتحدث كثيرا عن الحروب الصليبية. وُصفت كتاباته بأنها من الكتابات النادرة التي أنصفت المسلمين وتميزت بالحرفية والتخصص والشرف والأمانة، وأنه لم ينحرف مع تيار التحيز الظالم للعرب والمسلمين كدأب كثير من الكتاب الألمان. درس جوته القرآن وبذل جهداً للإلمام باللغة العربية وكان شديد الإعجاب بالقرآن الكريم وروعته اللغوية. وأدت دراسته للقرآن التي وصلت به إلى درجة الشغف والولع - إلى تأليف "الدراما المحمدية" التي كانت حينذاك تقف في تعارض مطلق مع مسرحية (فولتير) (١٦٩٤-١٧٧٨م) المسماة بـ(تطرف النبي محمد). ومن فرط بغضه لمسرحية فولتير، منع (جوته) أخته (كورنيليا) من المشاركة في إعادة عرض المسرحية، التي وُصفت بأنها "وضعت أبشع صورة يمكن للمرء تصورها عن نبي". وفي الوقت نفسه، قام (جوته) بتأليف «أغنية محمد» التي تعد أول تبجيل للنبي محمد (ﷺ) من قبل شاعر أوروبى. ولم يسلم جوته من الانتقادات، لكونه يثني على الإسلام على هذا النحو. وكان جوته يعظم عقيدة التوحيد في الإسلام؛ حيث قال: "ويسوع لم يؤمن في أعماقه إلا بالله الواحد الأحد، ومن جعل منه إلها؛ فقد أساء إليه وخالف إرادته المقدسة...إن الحق: هو ما نادى به محمد". لقد وُصف جوته بأنه كان أول شاعر أوروبي مرموق منفتح على الإسلام والعالم العربي. وكان يرى أن "القرآن كتاب الكتب"؛ وكتب يقول: "إذا قام المرء بتلاوة القرآن..يغشاه إحساس بالسكينة والرهبة..ما أقدس القرآن وما فيه من سكينة". د. كاثرينا ممسين: جوته والإسلام رؤية قديمة لعالم معاصر، ترجمة شيرين حامد فهمى، مكتبة الشروق الدولية، ص ص13-89. ومحمد عناني: في تقديمه لترجمته لـ(فاوست)، ليوهان جوته، موسسةهنداوي، 2013، ص14 ص16. وأحمد رياض: في تقديمه لرواية جوته:أحزان فرتر، ترجمةأحمد رياض،مؤسسة هنداوي، 2020م، ص ص 15، 16.

[14]- Ogg, D. : op. cit. pp.37,38,43.

[15]- Murray, G.: op. cit. pp.521,250 .

[16]- Ogg, D. : op. cit. p.44

[17]- أحمد نجيب هاشم و وديع الضبع: المرجع السابق، ص (ل).

في ديسمبر 1916م دعاه للاشتراك بها، وعهد إليه بوزارة المعارف[18]. وقد ظل يشغل هذا المنصب ستة أعوام، وظلت علاقة المودة بينهما وطيدة حتى الموت؛ وقيل إن فشر قد وقع تحت سحر عبقرية لويد جورج المفعمة بالحيوية[19]، وبرؤيته الثاقبة وشجاعته التي لا تقهر، وقوته العملاقة، مما جعل لويد جورج في نظره أعظم زعيم وطني إنجليزي منذ أمد بعيد. ولقد تم اختيار فشر في الوزارة لغرض صريح يتمثل في تعزيز الإصلاح التعليمي، وفي البداية لم تتم استشارته بشأن مسائل سياسية خارج وزارته. ولكن في كثير من الأمور المتعلقة بالحرب وتداعياتها، اهتموا بالاستماع لآرائه، وغالبا ما كان لها تأثير على رئيس الوزراء، الذي وجد في فشر منجما للمعلومات حول أوروبا والشؤون الخارجية[20]. وتجدر الإشارة أن لويد جورج هذا -صديق فشر الحميم الذي سحره بعبقريته وحيويته- كان قبل توليه منصب رئيس الوزراء يعمل مستشارا قانونيا للمنظمة الصهيونية في بريطانيا[21].

ومما يجب لفت الانتباه إليه أن فشر حينما شغل منصبَ وزيرٍ في حكومة لويد جورج كان زميلا لبلفور Balfour (1848-1930م)، وجمعت بينهما صداقة خاصة؛ فقد كان فشر يعد بلفور من رجال الدولة البارزين الذين لديهم ميول فكرية وأكاديمية[22]، ولم نقرأ لفشر أنه استنكر وعد حكومته على لسان زميله فيها بلفور وخصوصا أن فشر يعلم -ربما أكثر من غيره في الوزارة- أنه لا حق للصهاينة في فلسطين!

هذا في الوقت الذي عارض أعضاء في الوزارة مقترح وعد بلفور لدى مناقشته في مجلس الوزراء قبل صدوره، مثل وزير شؤون الهند اليهودي أودين مونتاجو Edwin Montagu (1879–1924م) الذي أنكر أيّ حقّ لليهود في فلسطين، وانتقد وعدهم بوطن قومي فيها لأنه سيقوم على طرد سكان فلسطين لإحلال اليهود مكانهم. وعارضه اليهودي ماثيو ناثان Matthew Nathan (1862-1939م) عضو مجلس الوزراء المختص بشؤون أيرلندا. كما عارضه اللورد جورج كيرزون George Curzon (1859-1925م) الذي كان حينئذ رئيس مجلس اللوردات، الذي كان يرى أنّ الوعد يمكن أن تكون له آثار خطيرة على مصالح بريطانيا، وعلى سكّان فلسطين، إذ سيفسح المجال لإحلال اليهود محلّ العرب. وعارض الوعد شخصيات سياسية بريطانية يهودية، لأسباب شتى منها خشية أن يمنح الوعد اليهود امتيازات لا يقاسمهم إيّاها جميع المواطنين في فلسطين[23].

وحينما أرخ فشر لتصريح بلفور لم يضع أي اعتبار لمصالح الأمم الأخرى وركز على فوائده لبلاده؛ فقال: "ضمنت بريطانيا إلى جانبها الجماعات اليهودية القوية في العالم التي تهيمن على أسواق المال، ليس في نيويورك وحدها؛ بل في أنحاء عديدة أخرى من العالم، وحملتها على مناصرة قضية الحلفاء[24]! ومن ثم فإن فشر يعد مسؤولا مسؤولية ضمنية عن هذا الوعد الذي أصدرته حكومة كان هو أحد أعضائها!

هذا عن سياسيين معاصرين لفشر وكانوا زملاءه في الوزارة؛ فماذا عن مؤرخين بريطانيين معاصرين لفشر؟ فعلى الرغم من صحة ما ذهب إليه جوستاف لوبون Gustave Le Bon(1841-1931م) من أن "المؤرخ يرى الحوادث من خلال مزاجه وخلقه وروح أمته"[25]؛ فثمة مؤرخون إنجليز أكثر إنصافا وموضوعية من فشر وكانوا معاصرين له، مثل

18- Ogg, D. : op. cit. . pp.59:61

19- Murray, G.: op. cit. p.523

20- Ogg, D. : op. cit. p.89.

21- محمد عبد الرحمن برج: التاريخ العربي الحديث والمعاصر، دار التعليم الجامعي، الإسكندرية، 2010م، ص ص 278، 279.

22- Murray, G.: op. cit. p. 525.

23- محمد عبد الرحمن برج: المرجع السابق، ص ص 284، ص287. وكوثر قديري: وعد بلفور في سياقه وتفاصيله، السفير العربي، عدد 217، 17 نوفمبر2016م.

24- هربرت فشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث، المرجع السابق، ص 532.

25- جوستاف لوبون: روح الثورات والثورة الفرنسية، تعريب: عادل زعيتر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2011م، ص89.

أرنولد توينبي Arnold Toynbee (1889– 1975م)؛ الذي انتقد سياسة بلاده حين أعطت وعدا لليهود يتناقض مع وعودها للعرب مستخدمة ألفاظا تحتمل أكثر من تفسير قائلا: "إنني كمواطن من المملكة المتحدة أعلن ذلك وكلي خجل وأسف، لكن تلك هي الحقيقة"[26]، ويصرح قائلا: "أعتقد فيما يتعلق بالمشكلة القائمة بين الفلسطينيين العرب والصهيونيين أن الفلسطينيين العرب على صواب، وأن الصهيونيين على خطأ...الجزء الأكبر من الأرض في إسرائيل اليوم هو شرعا ملك لأولئك العرب الذين طردوا من ديارهم...معاملة اليهود للعرب في فلسطين مشابهة من الناحية الأخلاقية لمعاملة النازي لليهود أثناء الحرب العالمية الثانية...إسرائيل الصهيونية الجديدة في فلسطين طبعة ثانية من الدول الغربية العنصرية الحديثة[27]. وهناك المؤرخة البريطانية اليزابيث مونرو (1905-1986م) Elizabeth Monroe التي تقول عن وعد بلفور: "إن الوعد أكبر خطأ في تاريخ حكومتنا"[28].

إذن ثمة ساسة ومؤرخون بريطانيون معاصرون لفشر عارضوا وعد بلفور لأسباب شتى؛ منها: لما فيه من عدوان، ولكن فشر اختار أن يصطف مع المنحازين اللاموضوعيين، والمفترض أن يكون -بدواعي الموضوعية- من المنتقدين؛ حيث إنه مؤرخ قبل أن يكون سياسيا.

وقد وُصف فشر بأنه "كان شديد الفخار بأمته، مزهوّاً بأعمال أبنائها في ميادين العلم والاجتماع والسياسة"[29]. فقد كان فشر يرى أن "مبادئ الحرية المدنية والسياسية والدينية راسخة الأركان، رفيعة العماد في بريطانيا ومستعمراتها المستقلة"[30]! وهذه مغالطة مكشوفة فكيف يمكن وصف بلد محتلة من قبل دولة أخرى بأنها مستقلة؟ إذ كيف يجتمع الاحتلال والاستقلال؟!

وقد يكون رأي فشر أن تلك المبادئ راسخة ومرعية في بريطانيا مقبولا، ولكن كيف يمكن أن يُستساغ رأيه بأنها راسخة ورفيعة العماد في مستعمراتها؟! فلا ريب أن مصر كانت من بين تلك المستعمرات! فهل كانت بلاده حقا ترعى مبادي الحرية السياسية والمدنية والدينية في مصر وغيرها! لقد عاصر فِشر ممارسات بلاده في مصر مثل حادثة دنشواي 1906م وكان عمره حينها حوالي 41 عاما، وحتما بلغه خبرها. فهل مثل تلك الممارسات تبعث على الفخر؟! وقد أثبت كتاب بريطانيون معاصرون لفشر موقفا للتاريخ منددا بحكومة بلادهم مثل برنارد شو Bernard Shaw (1856-1950م) الذي أشبع اللورد كرومر تقريعًا وسخرية، وشن حملة هجوم على الحكومة البريطانية والبرلمان؛ لأنهم لم يمنعوا تنفيذ الحكم بالجلد والإعدام بعد صدوره، وقال: "إن الإفراج عن السجناء من أهل القرية أقل تكفير منتظر عن هذه الكارثة البربرية"[31]! وهكذا شهد شاهد بريطاني بالوصف الدقيق لحادثة دنشواي بأنها كارثة بربرية؛ على نحو لا تكاد تجده لدى تأريخ فشر لسياسة بلاده في مستعمراتها.

وأي مدنية راسخة الأركان في المستعمرات البريطانية يفخر بها فشر وقد ندد مصطفى كامل(1874-1908م) في خطبة له في 22 أكتوبر 1907م بالإسكندرية من تقتير إنجلترا على التعليم في مصر قائلا: "هل من مفاخر العهد البريطانى أن ينفق على المجانية ابتداء من هذا العام (1907م) ألف وستمائة جنيه ليس إلا، وميزانية الحكومة بلغت خمسة عشر مليونا من الجنهات؟! على حين أن التعليم كان مجانا في كافة مدارس مصر يوم لم تكن

---

[26]- محمد عبد الرحمن برج: المرجع السابق، ص 246.
[27]- لمعي المطيعي: اليهود والفلسطينيون أرنولد توينبي، أبحاث الندوة الدولية (القدس التاريخ والمستقبل) جامعة أسيوط، مصر، 1996م، ص 136.
[28]- محمد عبد الرحمن برج: المرجع السابق، ص290.
[29]- أحمد نجيب هاشم و وديع الضبع: المرجع السابق، ص (م).
[30]- فشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث، المرجع السابق، ص (ص).
[31]- عباس محمود العقاد: برنارد شو، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2013م، ص 86.

ميزانية الحكومة تزيد عن المليونين؟"[32]. فهل مثل هذه الممارسات (من قتل وسجن وجلد للأبرياء وتجهيل ممنهج متعمد) من قبل الاحتلال البريطاني في مستعمراته تدعو أي بريطاني منصف للفخر أم للخجل؟!

وتجدر الإشارة أن عمل فشر كوزير لم يقتصر على وزارة المعارف بل كان ينتدب لتولي وزارة الهند[33]، ووزارة إيرلندا، حينما كان وزير أحدهما أو كليهما يتغيب عن لندن[34]. وهاتان الوزارتان لهما طابع إمبريالي يُعنى بسياسة بريطانيا الخارجية، وهذا يؤكد أن فشر حينما كان وزيرا في حكومة بلاده إبّان الحرب العالمية الأولى، كان يعلم بممارسات حكومته في المستعمرات الرازحة تحت نير بلاده التي زعم أنها ترعى مبادئ الحرية المدنية والسياسية والدينية! ولأهمية هذه المرحلة في حياة فشر كوزير، وأهميتها في حياة شعوب المستعمرات البريطانية سنعرض لمحة لأحوال مستعمرة منها، وهي مصر من خلال شهود العيان؛ حين أجبرت بريطانيا مصر على خوض غمار حرب مهلكة لا ناقة لها فيها ولا جمل، وأزهقت فيها أرواح مئات الألوف من المصريين.

فبعد أن أُجبر العسكريون المصريون على خوض غمار الحرب في صف بريطانيا، بدأت لندن في تنفيذ سياسة تعسفية جديدة لحشد العمال والفلاحين المصريين قسرا للعمل في ميادين الحرب؛ فعين 26 ضابطا بريطانيا بين الإسكندرية وأسوان لأجل هذه العملية. وكل ضابط يعاون مأمور المركز في جمع الأنفار، وتبدأ العملية باستدعاء عمدة القرية وإبلاغه بالعدد المطلوب من قريته، ويصف الدكتور جست Guest في Daily Newes بتاريخ 28 مارس 1919م ما رآه قائلا: "صدرت الأوامر بأخذ العمال من الحقول بالإكراه، والطريقة هي أن يدخل رجال الحكومة القرية وينتظرون رجوع الفلاحين إلى منازلهم في الغروب فيحيطون بهم وينتقون خيرهم للخدمة. فإذا رفض أحدهم هذا (التطوع) الإجباري جُلِد حتى الإقرار بالقبول، وعلى هذا النحو ساقوا صبيانا من سن أربعة عشر عاما وشيوخا في السبعين، وكانت الجموع المريضة المنهكة تُساق لتأدية الأعمال الحربية والكرباج كفيل بتسخيرهم من غير حساب، وأصبح الجلد من الأعمال اليومية[35]. ويذكر أحمد شفيق باشا (1860–1940م) في حولياته حادثة تدل على ضيق المصريين من هذه السخرة؛ فيقول: "إن قطارا كان يُقِلُ جماعة من المتطوعين المحروسين بالجند شاهري أسلحتهم قاصدا القنطرة، فما إن ابتعد عن مدينة الزقازيق بضعة كيلو مترات حتى ألقى واحد منهم بنفسه من القطار أثناء سيره؛ تخلصا من التطوع الذي لم يكن بالطبع بناء على رغبته؛ فمات في ساعته"[36].

ويقول الصحفي المخضرم السير فالنتين تشيرول Valentine Cherol مراسل صحيفة «التايمز» البريطانية: "وبعد أن جُنِّد هؤلاء عاملناهم كما يُعامَل العمال رخيصو الأجر عادة، فكان طعامهم وملابسهم وخيامهم وفرشهم رديئة". وقال قسيس إنجليزي: "إن الفلاحين في هذه الفرقة كانوا يتساقطون في سيناء وفلسطين والعراق تساقط الذباب". ونشر الكاتب الصحفي الأمريكي جورج كريل George Creel (1876–1953م) في مجلة (لي جب) Le Gppe في 27 سبتمبر 1919 عما قاساه هؤلاء العمال: "لقد سيق مليون ومائتا ألف من المصريين إلى الخدمة في فرقة العمال والنقل، وما يَتهم به الوطنيون المصريون السلطة العسكرية البريطانية أن معاملتها للعمال كانت أسوأ من معاملتها لدواب النقل؛ فقد كان طعامهم رديئا ومسكنهم فاسدا وكانت العناية الصحية بهم ضئيلة؛ فمات هؤلاء المجندون التعساء كالذباب، وكلما قضى منهم نفر وخلا بموتهم مكان، ساق الكرباج الآلاف غيرهم

---

[32]- عبد الرحمن الرافعي: مصطفى كامل، ط4، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1962م، ص504.

[33]- --Ogg, D. : op. cit. p.96.

34- أحمد نجيب هاشم و وديع الضبع: المرجع السابق، ص (ن).

[35]- لطيفة سالم: مصر في الحرب العالمية الأولى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1984م، ص ص250- 252.

[36]- أحمد شفيق: حوليات مصر السياسية، ج1، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 2012م، ص 134.

ليحلوا محلهم...وقد تعرضوا للنار وهم يحفرون الخنادق وينقلون المؤن والذخائر على خطوط القتال[37].

هذا غيض من فيض، من جرائم بريطانيا في مصر حين كان فشر أحد وزرائها ولم يستنكر، بل كتب مزهوا بسياسة بلاده مدعيا أنها ترعى مبادئ الحريات في مستعمراتها!

وبعد كل هذه العذابات التي جرعتها بريطانيا كرها للشعوب التي كانت خاضعة لنير احتلالها كيف تناول فشر مسألة المشاركة القسرية للمستعمرات في الحرب؟ لقد كتب قائلا: "وسرعان ما أُعلنت الحرب حتى التفت على الفور المستعمرات المستقلة ومستعمرات التاج البريطانية في إجماع عجيب حول المملكة الأم"[38]! ولا يُفهم من تعبير (الالتفاف) حول (المملكة الأم) إلا أن تلك المستعمرات قدمت تلك التضحيات وأولئك الضحايا عن طيب نفس دون إجبار؛ فهل هذا ما حدث حقا؟!

وحين تكلم فشر عن ضحايا الحرب العالمية الأولى لم يذكر كلمة عن مآسي شعوب المستعمرات البريطانية كمصر؛ إنما كان الذي أسال مدمعه وأقض مضجعه ضحاياها من الأوربيين فقط؛ فقال: "وليس في مقدور الكلمات أن ترسم آلام الأمم الأوربية وشقوتها وأرزائها خلال ذلك الصراع الدامى الطويل الأمد؛ فقد ذهبت الحرب بعقول البعض، وبأبصار آخرين، وزهقت أرواح البعض اختناقا بالغازات السامة، ومزقت الانفجارات أجسام بعض آخر، وشوهت أعضاءهم. وخرج الكثيرون من ساحات الوغى وقد تحطمت أعصابهم تحطما مستديما[39]! والإنصاف يقتضي أن يقول: وليس في مقدور الكلمات أن ترسم آلام الأمم التي خضعت لاحتلال بلاده وشقوتها وأرزائها خلال ذلك الصراع الدامى الطويل الأمد...؛ لأن هذه الأمم لم تشعل الحرب وليست مسؤولة عن الجحيم الذي ترتب عليها.

وحق لمصطفى كامل أن يستنكر ازدواجية المعايير لدى الإنجليز ولكن في سياق آخر حيمنا قال: "المصريون ينظرون إلى هذه المناظر ويتساءلون: أليس لدماء من مات منا ثمن؟ أليس لرجالنا قيمة؟ أليس المصرى فى شريعة الله إنسانا ككل إنسان؟ أيكون دم فرد من الإنجليز غالى الثمن رفيع القدر، ودماء الآلاف من المصريين لا ثمن لها ولا تقابل بغير النسيان؟"[40].

وأحسب أن الباحث لم يبرح الموضوعية والإنصاف إذا وصف ممارسات حكومة إمبريالية بـ(الإجرامية) حيث يتفق هذا الوصف مع الواقع الذي كانت عليه، وقد تساءل جوستاف لوبون قائلا: "هل يجب على المؤرخ أن يمتنع -بحجة الإنصاف- عن تقدير الرجال؟ أي مدحهم أو هَجْوهم؟"[41]، والإجابة: لا، قطعا؛ فالهجاء والقدح في محله، وكذلك الثناء والمدح في مكانه لا يجافي الإنصاف ولا الموضوعية. وقد سبق ذكر هجاء برنارد شو لحكومة بلاده بسبب حادثة دنشواي ولم يكن متجاوزا حد الإنصاف، ومن يقرأ لفشر يجده مرارا بين مادح وقادح في مواضع شتى دون تحرز، وعلى الرغم من ذلك نال مدحا بالموضوعية كما سبق ذكره.

وقد شارك فشر في معاهدات الصلح التي عُقدت عقب الحرب العالمية الأولى ولم يكن لديه شك في أن معاهدات الصلح كانت عادلة وديمقراطية[42]! وذلك على الرغم مما وُجِّه إليها

37- لطيفة سالم: المرجع السابق، ص ص261،262. وأحمد شفيق: المرجع السابق، ص ص 134،135.

38- هربرت فشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث، المرجع السابق، ص 541.

39- نفسه، ص ص 543، 544.

40- قال ذلك مصطفى كامل في خطبة ألقاها في 23 ديسمبر 1898م في بالأزبكية بالقاهرة. عبد الرحمن الرافعي: مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط4، 1962م، ص131.

41- جوستاف لوبون: المرجع السابق، 2011، ص89.

42- -Ogg, D. : op. cit. pp.97,98.

من انتقادات حادة؛ إلا أنه دافع عنها قائلا: "ليس صحيحا القول بأن معاهدات الصلح تنقصها الروح المثالية أو أنها لا تقوم على مبادئ صائبة"[43]! فهل هذه رؤية مؤرخ موضوعي أم رؤية سياسي بريطاني إمبريالي؟!

وحين تألف وفد بريطانيا إلى عصبة الأمم في خريف 1921م كان فشر مع بلفور أبرز أعضائه، وشارك بفاعلية في اجتماعات عصبة الأمم وفي لجانها ومجلسها؛ إذ كان يرى أن عصبة الأمم هي الحصن الوحيد الذي يحول دون انزلاق أوربا نحو الفوضى. وأنهى فشر عمله هناك في 1922م. وهو العام نفسه الذي انتهى فيه عمله أيضا كوزير باستقالة وزارة لويد جورج في سبتمبر 1922م. وفي أكتوبر أقيمت مراسم احتفالية في القصر الملكي، حيث أشاد الملك جورج الخامس George V (1910-1936م) بسياسة حكومته المستقيلة في الشرق الأدنى، وهنأ الملكُ فشرَ على عمله في عصبة الأمم، وعلى خدماته لقضايا التعليم، وأعرب عن سعادته لأن فشر خدمه بكفاءة كأبيه الذي خدم والد جلالته (إدوارد السابع 1901-1910م) عندما كان أمير ويلز[44].

وتجدر الإشارة إلى أن عصبة الأمم أصدرت صك الانتداب البريطاني على فلسطين في 24يوليو1922م وتم تضمين وعد بلفور داخل بنود هذا الصك؛ فغدا جزءا من وثائق عصبة الأمم واتخذ بذلك صفة دولية[45]، وهو ما يعني أن ذلك الحدث الجلل قد تم إبان عضوية فشر في وفد بلاده لدى المنظمة الدولية؛ فكما كان من المسؤولين ضمنا عن صدور وعد بلفور؛ حيث كان عضوا في الحكومة آنذاك؛ فإنه وللمرة الثانية كان من المسؤولين عن صدور صك الانتداب من العصبة.

وإذا كان إصدار تصريح بلفور، يعد النجاح الأول الذي حققته الصهيونية، فإن النجاح الثاني الذي حققته نحو تحقيق هدفها، تمّثل في إصدار عصبة الأمم لصك الانتداب على فلسطين؛ فكان الوثيقة الرسمية الأولى، التي جعلت من تصريح بلفور وعداً دولياً ملزماً لحكومة الانتداب البريطاني على فلسطين، ووضع الأسس لإقامة -ما وصفته لجنة بيل الملكية البريطانية عام 1937م- حكومة داخل حكومة حين استوحت نصوصه مفهوم تصريح بلفور[46].

وبعد تركه الوزارة اشتغل فشر بالتأليف وحضور جلسات مجلس العموم[47]، الذي ظل عضوا فيه لفترة طويلة. وألقى العديد من المحاضرات في بريطانيا وخارجها مثل كندا والولايات المتحدة[48]. وفي عام 1925م خلت عمادة كليته القديمة باليول Balliol College بأكسفورد فعُرضت عليه فقبلها. وصنف عددا من المؤلفات التاريخية في موضوعات مختلفة. وبدأ حوالي سنة 1930م يؤلف آخر أعماله الجادة وأكبرها كتابه (تاريخ أوربا) A History of Europe وتوج به أعماله وأتمَّه سنة 1936م. وقد وصف بأنه أفضل ما أنتج فشر وأكثرها إثارة للاهتمام وخاصة الجزء المخصص للعصر الحديث؛ لأن

43- فشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث، المرجع السابق، ص 555.

44- -Ogg, D. : op. cit. pp.105-114.

45- علي محمد علي: ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية،ج1، مركز دراسات الشرق الأوسط، د.ت، ص ص365-376.

46- أسامة محمد أبو نحل وناجي صادق شراب: قراءة في أهم مواد صك الانتداب البريطاني على فلسطين رؤية تاريخية سياسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأزهر، غزة، فلسطين، د.ت، ص ص10،5.

47- البرلمان في بريطانيا، مكون من مجلسين هما: مجلس اللوردات، ومجلس العموم، وهذا الأخير هو المسيطر الفعلي على السلطة التشريعية. رياسة الجمهورية: مكتب الرئيس للأبحاث الاقتصادية، المملكة المتحدة النظام السياسي والاقتصادي، مصلحة الاستعلامات، القاهرة، د. ت. ص 7.

48- -Murray, G.: op. cit. pp. 525,256.

فيشر لديه معرفة عملية بأساليب عمل الحكومات؛ فوضعته هذه الأسفار التاريخية في صدارة أقطاب المؤرخين في العصر الحديث[49].

وقد ألف فشر كتاب (نابليون) في عام 1913م، وقد وصف بأنه "ربما يكون أفضل سرد قصير عن مسيرة نابليون المهنية"[50]، وخلال عقدين ونيف من الزمن، بين تأليفه الكتاب الأول وفراغه من تأليف الثاني (تاريخ أوربا)، وهما الكتابان اللذان يقوم هذا البحث على نقدهما يُلاحَظ أن فِشر ردد في كتابه الثاني أصداء ما ذكره في كتابه الأول ولم يطرأ على سرده وروايته للأحداث وتحليله وتفسيره لها أي تغيير يمكن رصده. وقد لزم ذكر ذلك؛ فلربما برز تساؤل: هل ظلت رؤية فشر لأحداث الحملة الفرنسية على مصر ثابتة ولم تتغير؟ إذ اعتاد كثير من المؤرخين على مراجعة معالجة بعض المسائل التي سبق لهم بحثها، وتغيير وجهة نظرهم، بيد أن شيئا من ذلك لم يحدث مع فشر لدى معالجاته الأولى أو الأخيرة لموضوع الحملة الفرنسية على مصر.

وبجانب تلك الأعمال الكبيرة والمسؤوليات العديدة، ترأس المجمع العلمي البريطاني في الفترة من 1928م حتى 1932م، ومكتبة لندن، وكان عضواً في مجلس إدارة المتحف البريطاني، وفي مجلس إدارة هيئة الإذاعة البريطانية[51]، كما أسهم بنصيب في هيئات أخرى تاريخية وسياسة وعلمية كثيرة. ومُنح فشر لخدماته العلمية الكبيرة وسام الجدارة Order of Merit، وهو من أرفع الأوسمة البريطانية؛ ولا يمنح إلا لأساطين الكتاب والعلماء البريطانيين. وظل يشغل منصب عمادة كليته القديمة باليول حتى وفاته. وتولى إبان الحرب العالمية الثانية رئاسة محكمة الاستئناف الخاصة بالممتنعين عن أداء الخدمة العسكرية بوازع الضمير لأسباب دينية أو أخلاقية، وكان هذا المنصب دقيقاً يحتاج إلى مران وخبرة بعقلية الشبان، وكان هذا العمل الخدمة الأخيرة التي قدمها لبريطانيا[52]، ويُقال إنه أداه خير أداء. وبينما كان في طريقه إلى دار المحكمة صدمته شاحنة، نُقل على إثرها إلى مستشفى سانت توماس St. Thomas's Hospital وبدا لبضعة أيام أن الشفاء ممكناً، ولكن ثبت أن إصاباته كانت قاتلة أودت بحياته في يوم 18 أبريل عام 1940م[53].

---

[49]- أحمد نجيب هاشم و وديع الضبع: في مقدمة تعريب كتاب فشر، المرجع السابق، ص ص (ي،ك،س) و Murray, G.: op. cit. p.528.

[50]- Ogg, D. : op. cit. p.145.

[51]- نفسه، ص ص (ن،س،ع) و Ibid. p.128.

[52]- نفسه، ص ص (ن،س،ع) Ibid. cit. p.138.

[53]- Ogg, D. : op. cit. pp.138,141. & Murray, G.:op. cit. pp.519,526.

المراجعة الأولى
موقف المصريين من الحملة لدى دخولها الإسكندرية

كانت الإسكندرية أول مقصد للحملة الفرنسية، وأول من علم باقتراب الأسطول الفرنسي قبل أن يصل إليها، فعلى الرغم من تكتم نابليون وجهة الحملة فقد تسربت أخبارها، وخاصة بعد أن وصل نبأ استيلاء الفرنسيين على جزيرة مالطة؛ فنقل قباطين بعض السفن التجارية إلى الثغور المصرية إشاعة اعتزام الفرنسيين احتلال مصر، فعم السخط والهياج واستعد الناس للمقاومة. وبينما هم كذلك حضر هوراشيو نيلسون Horatio Nelson (1758- 1825م) بأسطوله إلى مياه الإسكندرية في 28 يونيو 1798م بحثا عن الأسطول الفرنسي، بيد أنه لم يلتق به، فأرسل إلى السيد محمد كريم ينبهه إلى احتمال حضور الأسطول الفرنسي، وطلب أن يأذن له بدخول الثغر ليتزود بالماء والزاد بثمنه، فرفض طلبه؛ فانصرف[54]. وبعد قليل وصلت حملة نابليون.

يقول فشر:

the French flotilla arrived off Alexandria on July 1. The disembarkation was uncontested, but had Napoleon arrived three days earlier, he would have found Nelson and thirteen 74's waiting to give him a reception[55].

الترجمة: وصل الأسطول الفرنسي قبالة الإسكندرية في الأول من يوليو، هناك نزلت الجنود إلى البر، دون أن تلقى مقاومة. ولو أن نابليون وصل إليها قبل ذلك بثلاثة أيام، لوجد نلسون بثلاثة عشر مركبا من ذوات 74 مدفعا في انتظاره.

وهي صيغة قريبة مما أورده (داريل ديكسترا) Darrell Dykstra؛ حيث زعم أنه لم تكن هناك مقاومة عسكرية لنزول القوات البرية الفرنسية على شواطئ غرب الإسكندرية[56]. ويبدو من عرض فشر أنه يتماهى مع ما تردده كتابات فرنسية بهذا الصدد، وقد لاحظ هذا ونبه إليه المؤرخ بيتر جران Peter Gran (1941- م) حين قال بأن استيلاء الفرنسيين على الإسكندرية لم يكن بالسهولة التي صورتها المراجع الفرنسية الرومانسية[57]. التي تزعم عدم مقاومة المصريين للفرنسيين؛ فكتب أحدهم قائلا: إن "أسطورة قديمة كانت قد أكدت أن دخول مركب من الفرنجة إلى الميناء القديم، يعني انتهاء سيطرة المسلمين على الإسكندرية، وقد حققنا بمركبنا هذه النبوءة"[58]. والراجح أن فشر نقل عن أمثال تلك الكتابات دون تمحيص كاف. ويبدو أنه تماهى مع بعض الكتابات التي سعت إلى تهميش صورة المقاومة المصرية للحملة الفرنسية وتصوير المصريين على أنهم مجتمع خانع دون إرادة.

54- الجبرتي: عجائب الآثار، ج4، تحقيق عبد العزيز جمال الدين، ط2، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 2012م، ص58. وعبدالرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية،ج1، مكتبة الأسرة، القاهرة، 1998م، ص ص 166، 167.

54- Fisher, H.: Napoleon, Henry Holt and company, London, 1913,p.62

55 - Dykstra, D.: The French occupation of Egypt, Modern Egypt, From, 1517 to the end of the twentieth century, From The Cambridge History of Egypt, V. 2,1998, p. 122.

57- بيتر جران: الجذور الإسلامية للرأسمالية مصر 1760-1840م، ترجمة محروس سليمان، مراجعة رؤوف عباس، دار الفكر للدراسات، القاهرة، 1993م، ص60.

58- ليلى عنان: الحملة الفرنسية في محكمة التاريخ، ج2، دار الهلال، القاهرة، 1998م، ص33.

إن مقاومة الإسكندرية للغزاة الفرنسيين تعد من المعلوم من التاريخ بالضرورة؛ وعلى الرغم من ذلك فقد قال فشر ما سبق ذكره! فهب أن قارئا لم يطالع حقيقة ما جرى ثم قرأ هذا الوصف لفشر ما الذي سيفهم منه؟ لا مناص من أنه سيفهم أن الإسكندرية لم تقاوم مطلقا وخصوصا أن فشر لم يتبع هذا الوصف بأي معلومة تروي ما حدث من مقاومة؛ فذكر أن القوات الفرنسية لم تلق مقاومة لدي نزولها إلى البر، وأن نابليون لو بكّر بالوصول 3 أيام لوجد نيلسون في انتظاره يصليه نارا حامية، وانصرف مباشرة يكمل حديثه عما توالى من أحداث الزحف صوب القاهرة؛ فلا تثريب على القارئ لو فهم أن الإسكندرية لم تقاوم الغزاة، وفي هذا مجافاة للحقيقة التي فاضت بذكرها شهادات المعاصرين، ومنها شهادات فرنسية.

نحن هنا أمام احتمالين؛ الأول: أن يكون مقصود فشر أن الحملة لم تجد مقاومة فور نزولها إلى الشاطئ؛ فهذا صحيح؛ لأنها نزلت في الصحراء، وقُدِّرت المسافة بين جهة العجمي التي نزلت فيها الحملة وبين مدينة الإسكندرية بحوالي 14 كم، ولا سيما أنها حطت رحالها بعد منتصف الليل على نحو ما سنرى.

فلقد صدر الأمر بإنزال الجنود الفرنسيين رغم هبوب العواصف وهياج البحر والظلام الحالك وغرق بعض العساكر، حيث ذكر سكرتير نابليون الخاص لويس دى بورين[59] Louis de Bourrienne بأنهم وضعوا أقدامهم في أرض مصر في الساعة الثانية من صبيحة يوم ٢ يوليو عند نقطة تبعد من الإسكندرية نحو ثلاثة فراسخ (حوالي 14كم[60]). وفي الساعة الثالثة بدأ الزحف على الإسكندرية التي لم يكن أهلها ينتظرون أن يدهمهم الفرنسيون ليلًا؛ إذ المألوف لديهم أن الجيوش الغازية تأتيها من جهة (أبوقير)، وتحتاج عدة أيام لكي تفرغ شحنات السفن، وتنظم قواتها للهجوم على المدينة. وظل نابليون سائرًا برجاله حتى أشرفوا على مدينة الإسكندرية، فكان أول ما لاح لهم مع بزوغ الفجر عمود السواري ثم المنارات والمباني، وصعد نابليون في الساعة الثامنة صباحًا، على قاعدة عمود السواري لاستطلاع المدينة، وإعداد الحملة عليها[61]. فإذا كان هذا ما حدث فما الذي يدفع فشر أن ينص على أن الحملة لم تلق مقاومة، وهذا بدهي وليس في حاجة إلى تنبيه وذكر.

الاحتمال الثاني: أن يكون مقصود فشر أن الحملة الفرنسية لم تجد مقاومة مطلقا؛ والواضح أن هذا مقصوده، وهو انسياق وراء الروايات الفرنسية الدعائية التي تجافي الحقيقة. ومن يقرأ لفشر وصفه للحملة لدي وصولها إلى السواحل المصرية من أنها لم تلق مقاومة؛ فلا ينصرف ذهنه إلا إلى استسلام المصريين وخضوعهم للمحتل الغاصب أو ربما يفهم منها أنهم رحبوا بالغازي وهذا خطأ كله. وهناك حالة دخل فيها الغزاة الإسكندرية دون مقاومة في عام 1807م حين غزا الإنجليز مصر؛ فلو أن مؤرخا أرخ لحملة فريزر Fraser على مصر؛ فكتب يقول: "ونزلت القوات الإنجليزية إلى البر دون أن تلقى مقاومة"؛ لكان الوصف صائبا صحيحا؛ بسبب خيانة حاكمها أمين أغا[62]، أما في حالة الحملة الفرنسية؛ فلا يصح أن يقال ونزلت القوات الفرنسية إلى البر دون أن تلقى مقاومة.

59- بورين: كان صديق نابليون المقرب وكاتم سره، نشر مذكراته سنة 1831م، ورغم أهميتها ودقة بياناتها يجب توخي الحذر في بعضها؛ إذ إن بورين تنكر لنابليون حينما أفل نجمه في حروبه الأخيرة التي انتهت بأسره في واقعة واترلو وانضم إلى خصومه من الملكيين وكافأوه على تنكره لسيده. عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج1، المرجع السابق، ص444.

60- الفرسخ ثلاثة أميال، والميل البري:1609م، إذن الفرسخ: 4827م، المعجم الوسيط، ج2، المرجع السابق، ص ص 706،930. إذن الثلاثة فراسخ تكون 14.481كم. منطقة العجمي الآن ومنذ زمن جزء من الإسكندرية ولكن حينما هبط نابليون بحملته لم تكن كذلك وكان بينهما تلك المسافة التي ذكرت.

61- محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2013م، ص 86. وأحمد حافظ عوض: ص ص 96_98.

62- سلَّم أمين أغا نفسه كأسير حرب ومعه حامية المدينة نحو ثلاثمائة مقاتل، مقابل رشوة، ودخل الإنجليز الإسكندرية ليلة 21 مارس دون أن تطلق رصاصة واحدة. راجع عبد الرحمن الرافعي تاريخ الحركة القومية،ج3، عصر محمد علي، مطبعة النهضة، الطبعة الأولى، القاهرة، 1930م، ص ص 44،43.

والروايات المؤكدة التي تثبت أن أهل الإسكندرية قاوموا الفرنسيين كثيرة يصعب حصرها، ولكن يمكن عرض أهمها على النحو التالي:

أولا: فيفان دينون Vivant Denon: الكاتب الفرنسي وأحد أعضاء بعثة العلوم والفنون، وكان على ظهر السفينة (جينون) Junon التي كلف نابليون ربانها بالتقدم صوب مياه الإسكندرية للقاء قنصل فرنسا في الثغر، فسمع حديث قنصلهم ودوّنه قائلا: قدم إلينا قنصلنا بصحبة ترجمانه وهو في حالة من الرعب بعد أن أفلت من القتل ومن هياج الشعب، وأخبرنا أن أسطولا إنجليزياً بقيادة نلسن زار الإسكندرية قبل ثلاثة أيام وأن الإنجليز صرحوا بأنهم قدموا للتفتيش عنا لحربنا، وقد ظنهم الأهلون فرنسيين، فانفجر بركان الهياج في البلاد كلها لشعورهم باقترابنا، وكانوا يتوقعون ذلك مذ علموا باحتلالنا لمالطة، وقد استعدوا للمقاومة؛ فأخذوا يحصنون القلاع ويزيدون عدد الجند بالمتطوعين للقتال[63]. وفي هذا الوصف من قبل دينون ما يكفي للتدليل على مدى تحفز الإسكندرية للمقاومة والكفاح.

ولما سمع نابليون حديث القنصل خشي عودة نيلسون ومباغتته بأسطوله في عرض البحر؛ فأمر بالمبادرة إلى إنزال الجنود إلى البر، جهة العجمي، وبعد أن استراحوا قليلا أمر نابليون أن تزحف هذه القوة على الإسكندرية من غير إبطاء لتباغت أهلها فلا تدع لهم وقتاً لتنظيم الدفاع عن المدينة، أما أهالى الاسكندرية؛ فمنذ أن ظهر الأسطول الفرنسي مغطيا وجه البحر؛ فزعوا إلى السلاح فحمله القادرون منهم، وركبوا المدافع العتيقة على أسوار المدينة استعداداً للكفاح، وعهدوا إلى جماعة من الفرسان مناوشة القوات الفرنسية قبل اقترابها، فحدثت مناوشات بين الفرنسيين والأهالي الذين ارتدوا على أثرها جنوبا وتابع الفرنسيون زحفهم على المدينة. واحتشد الأهلون الذين يحملون السلاح على الأسوار وفي الأبراج التي تتخللها للدفاع، ورأى نابليون أهالى الإسكندرية محتشدين بأعلى الأسوار مشاة وركبانا، رجالا ونساء، كباراً وصغاراً، ومعظمهم مسلحون بالبنادق والرماح، فأصدر أمره بالهجوم العام، وأخذ الأهالى يطلقون النار من المدافع المركبة على الأبراج والأسوار إطلاقا من غير إحكام، فأحاط الجنود بأسوار المدينة وهاجموها من ثلاث جهات، واندفعوا إلى الأسوار، فقابلهم الأهالي بإطلاق النار إطلاقا شديداً من المدافع والبنادق، وقاومت الأبراج مقاومة عنيفة، لكن المدافعة لم تدم طويلا، فاقتحم الجنود الأسوار ودخلوا المدينة ووصلوا إلى الجهة المسكونة منها، وكانت مقاومة الأهالي قد فدحتهم بالخسائر، فهاجموا الأهالي في بيوتهم، فدافع هؤلاء عن أنفسهم وأخذوا يطلقون الرصاص من البيوت على الجنود المهاجمين. وفي نهاية المطاف كف الأهلون عن المقاومة مذعنين للقوة القاهرة، وظل السيد محمد كريم يدافع بعد دخول الفرنسيين المدينة معتصما بقلعة قايتباى ومعه فريق من المقاتلة، إلى أن كلت قواه ورأى المقاومة عبثاً لا يجدى، فكف عن القتال[64]. وكتب فيفان دينون معلقا على هجومهم على الإسكندرية ومقاومة أهلها قائلا: لم يهرب منهم أحد؛ فكان لابد من قتل كل من وجد على الأسوار وقد مات منا 200 جندي[65].

ثانيا: كتب الجنرال برتييه[66] Berthier رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية، في رسالته إلى وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ 6 يوليو 1798م يصف احتلال الفرنسيين

63- محمد فؤاد شكري: المرجع السابق، ص ص 86، 87. وعبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية،ج1، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1998م، ص ص 168، 169.

64- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج1، المرجع السابق، ص ص171، 172.

65- ليلى عنان: الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة، دار الهلال، القاهرة، 1992، ص61 .

66- ولد برتييه في عام 1753م، وكان أبوه جنديا، فأدخله الجيش سنة1770م، ترقى برتييه بسرعة حتى صار رئيس أركان حرب الجيش الفرنسي في الحملة الإيطالية، وقد صحب نابليون إلى مصر بالوظيفة نفسها. ولما أصبح نابليون قنصلا عام 1799م تقلد برتييه وزارة الحربية، وظل يعمل حتى سقوط نابليون عام 1814م. وعندئذ اضطر برتييه إلى الخضوع للملكية الجديدة في فرنسا، بيد أنه لما رجع نابليون من جزيرة إلبا لم يطق برتييه البقاء في فرنسا، فاحتجب عن الناس، وأقام في بلدة على الحدود، وكان يتابع الحوادث في

للاسكندرية؛ فقال: "إن الأهالي دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت، وقد أصيب في هذه الموقعة الجنرال كليبر Kléber بعيار ناري في جبهته، فجرح جرحا بليغاً، وأصيب الجنرال جاك مينو Jacques Menou بضربة حجر أسقطته من أعلى السور فنالته رضوض شديدة، وأصيب الجنرال إسكال Escale بجرح بليغ في ذراعه من عيار ناري، وقتل اللواء ماس Mas وخمسة ضباط آخرين[67].

ثالثا: رواية الجبرتي التي تبين مقاومة أهل الإسكندرية يقول فيها: "خرج أهل الثغر، ومن انضم إليهم من العربان وكاشف البحيرة، فلم يستطيعوا مدافعتهم، ولم يثبتوا لحربهم...ورجع أهل الثغر إلى التترس في البيوت والحيطان، ودخلت الإفرنج البلد. وانبث فيها الكثير من ذلك العدد، كل ذلك وأهل البلد لهم بالرمي يدافعون، وعن أنفسهم وأهليهم يقاتلون ويمانعون[68]. وغني عن البيان أن الجبرتي كان يتوخى الدقة فيما يورد من أخبار ويصدق روايته الشهادات السابق إيرادها والتالية.

رابعا: فرانسوا بيرنييه[69] François Bernier كتب يقول: "عندما رأى حاكم الإسكندرية أننا نستعد للنزول على الشاطئ أخذ يصلح بسرعة فائقة تحصيناته السيئة وأثار الغوغاء ضدنا". ويلاحَظ أن كل من قاوم الغزو الفرنسي يُنعت دائما بكلمات نابية، ولا يطلق عليه أبدا ما يصفه فعلا، وهو أنه من قوم يقاومون من أجل استقلالهم[70].

خامسا: الجنرال بوابيه Boyer وكان أحد هيئة أركان الحرب العامة كتب يقول: "حين دُحر المدافعون على جميع الجوانب احتموا بإلههم [سبحانه] ورسولهم [صلى الله عليه وسلم]، فملأوا الجوامع، وذُبح الرجال والنساء والكبار والصغار، وحتى الأطفال، عن بكرة أبيهم. وبعد نحو أربع ساعات هدأت سورة[71] جنودنا في النهاية"[72]. وهذا نص على أنه كان هناك مدافعون ولكنهم دُحروا.

سادسا: شهادة الجندي الفرنسي ميييه Meillet الذي شارك فعليا في القتال ضمن فرقة كليبر تؤكد الشهادات السابقة فيقول في مذكراته: "ظننا أن المدينة قد استسلمت، وما أدهشنا بشدة أن ينهال علينا رصاص البنادق ونحن نمر أمام المساجد؛ فأمرنا قائد اتفق وجوده هناك أن نقتحم باب المسجد ولا نُبْقِي على أحد فيه، وهكذا هلك الرجال والنساء والأطفال بحد السناكي"[73]. هنا يتحدث عن حال المدينة بعد أن كلت قوى المدافعين عنها ورغم ذلك لم يكف عن المقاومة من استطاع إليها سبيلا لعله ينال من العدو نيلا.

سابعا: رواية بوريين الذي ذكر أن بونابرت نفسه كاد أن يلقى مصرعه برصاصة أطلقت عليه من نافذة أحد المنازل، لولا تدخل القدر؛ فنجا من الموت؛ فقد كشطت الرصاصة

وطنه، وفى أثناء الحرب النهائية بين نابليون وأوربا 1815م ، أطل برتييه يوماً من شباك بيته، فرأى فرقة من الجيوش البروسية الظافرة تتقدم نحو الحدود الفرنسية، فلم يطق المنظر، فانتحر بإلقاء نفسه من النافذة إلى الشارع، ولقي حتفه. هربرت فشر: نابليون، المرجع السابق، ص39.

67- الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج1، المرجع السابق، ص 172.

68- الجبرتي: ج4، المصدر السابق، ص59.

69- فرانسوا برنوابيه: كان يشغل في جيش نابليون ما كان يسمى "مدير مشغل ملابس الشرق". وقد عرض الكاتب الفرنسي (كريستيان تورتيل) خطاباته التسعة عشر التي أرسلها إلى زوجته وابن عمه يحكي فيها عن الأحداث السياسية التي عاشها أثناء مصاحبته لبونابرت. ليلى عنان: الحملة الفرنسية بين الحقيقة والأسطورة، المرجع السابق، ص26.

70- ليلى عنان: الحملة الفرنسية بين الحقيقة والأسطورة، المرجع السابق، ص 29.

71- سورة الغضب: شدته وحدته وهياجه. المعجم الوسيط، ج1، المرجع السابق، ص479.

72- ج. كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ترجمة: فؤاد أندراوس، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1998، ص78.

73- نفسه، ص 78.

حذاءه الشمال، وعندئذ رد الجنود الفرنسيون بإطلاق النار، وتسلق آخرون سطح المنزل ودخلوه؛ فلم يجدوا سوى رجل وسيدة فقتلوهما فورا[74].

ثامنا- الجنرال مينو كتب يقول: "إن الجنود يستحقون الثناء العظيم على ما بذلوه من الإقدام والهمة والذكاء وسط المخاطر العظيمة التي كانت تحيط بهم؛ لأن الأعداء (يقصد أهل الإسكندرية) قد دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم"[75].

تاسعا - فورييه Fourier[76]: وهو شاهد عيان ومن العلماء الذين جلبهم نابليون معه في حملته؛ فكتب عن موقف سكان الإسكندرية من الحملة قائلا: "وأبدى السكان مقاومة حامية وعنيدة"[77].

عاشرا نابليون: قدر نابليون خسائر جيشه في مهاجمة الإسكندرية في رسالة إلى حكومة الإدارة[78] ما بين ثلاثين إلى أربعين قتيلا، وما بين ثمانين إلى مائة جريح. ثم عاد وقدرها بعد ذلك في مذكراته، بنحو ثلاثمائة بين قتيل وجريح، بينما قدر خسائر السكندريين بسبعمائة إلى ثمانمائة بين قتيل وجريح. وأمر بدفن قتلى الفرنسيين في احتفال عسكري كبير حول عمود السواري، ونقشت أسماؤهم على قاعدته[79]. وبغض النظر عن الاختلاف بين روايتيه[80]؛ فإن سقوط نحو الألف من القتلى والجرحى من الفرنسيين والمصريين، وأسماء قتلى الفرنسيين المحفورة على قاعدة عمود السواري خير دليل على المواجهات التي دارت بين المهاجمين والمدافعين.

وبناء على ما سبق من روايات لشهادات شهود العيان من رجال الحملة الفرنسية قادة وجنودا وعلماء؛ فإنه يثبت بالدليل القاطع أن فشر قد جانبه الصواب حين ادّعى أن الفرنسيين دخلوا الإسكندرية دون مقاومة.

74- عبدالرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية ،ج1، المرجع السابق، ص171.

75- نفسه، ص 172.

76- كان فورييه من بين علماء الحملة الفرنسية على مصر، وقد نشرت دراسته في الجزء الأول من وصف مصر، تحت عنوان مصر والحملة الفرنسية مقدمة تاريخية، وصف مصر، ج1، المصريون المحدثون، ترجمة زهير الشايب، مكتبة الأسرة،القاهرة، 2002م، ص ص295-359.

77- فورييه: مصر والحملة الفرنسية، وصف مصر، ج1، المصريون المحدثون، ترجمة: زهير الشايب، مكتبة الأسرة، 2002م، ص324.

78- حكومة الإدارة: هي الهيئة التنفيذية التي تولت السلطة لمدة أربع سنوات، وكانت مكونة من خمسة أشخاص يتناوبون الرئاسة، ينتخبون لمدة خمسة أعوام. وكانوا جميعا من معسكر الثورة وأهمهم بارا Barras (1755–1829م)، الذي كان رجل الساعة؛ حيث إنه هو الذي أسقط روبسبيير Robespierre(1758-1794م) في يوليو 1794، واكتشف نابليون في أكتوبر 1795. عندما عهد بارا إليه بمهمة الدفاع عن دار المؤتمر الوطني المهددة، فاستطاع إنقاذ الحكومة من المتظاهرين فأتاح ذلك فرصة لترقية نابليون؛ فجعل على الفور قائدا للقوات الداخلية، وفي العام التالي حظي بمساعدة بارا مرة ثانية بقيادة الحملة الإيطالية ذات الأهمية البالغة. فشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث، المرجع السابق، ص ص42-44.

79- عبد الرحمن الرافعي: المرجع السابق، ج1، ص ص172،173.

80- الراجح أن الرواية الأخيرة هي الصحيحة، لأن نابليون دأب على تقليل خسائره في رسائله لحكومة الإدارة على نحو ما هو معلوم.

المراجعة الثانية: موقعة إمبابة

يقول فشر في كتابه (نابليون):

he opposed to the impetuous cavalry of the Mamelukes…A crushing victory near the Pyramids[81]

الترجمة: واجه(نابليون) المماليك وخيالتهم البواسل... وحقق انتصارا ساحقا قرب الأهرام.

ويقول في كتابه (تاريخ أوربا الحديث):

the battle of the Pyramids, where Bonaparte destroyed the savage power of the Mamelukes[82]

الترجمة: معركة الأهرامات؛ حيث دمر بونابرت السلطة الهمجية للمماليك.

وللباحث هنا استدراكان:

الأول: إطلاقه اسم (الأهرام) بدلا من (إمبابة) على تلك الواقعة التي دارت بينه وبين المماليك؛ تمشيا مع الدعاية النابوليونية.

إن تسمية تلك الموقعة بمعركة إمبابة أقرب إلى الحقيقة؛ لأنها وقعت حول إمبابة بيد أن الفرنسيين أطلقوا عليها واقعة الأهرام تفخيما لها وتخليدا لاسمها في التاريخ[83]. والذي حدث أن بونابرت وهو يلقى خطبة قصيرة في رجاله المحيطين به، أشار إلى الأهرام قائلا: "تقدموا، وخذوا في اعتباركم أن أربعين قرناً تطل علينا من فوق هذه الآثار". ولكن هذه الكلمات القصيرة -كما قال المؤرخ الفرنسي هنري لورنس Henry Laurens (1954-م)[84]- سوف تُستعاد بشيء من التحوير من جانب كُتّاب القرن التاسع عشر لتغدو العبارة الشهيرة: إن أربعين قرنا ترقبكم من ذرى هذه الأهرامات"[85]! ويقول المؤرخ الفرنسي أندريه ريمون André Raymond (1925- 2011م): "سحق (نابليون) القوات المملوكية قرب إمبابة، خلال مواجهةٍ منحها اسم معركة الأهرام الأكثر إيحاء؛ مع أن الأهرام كانت تبعد بمسافة 12 كيلو مترا"[86]. ويفسر هنري لورنس هذه التسمية بقوله: هذه المعركة التي دارت في إمبابة سوف تسمى لاعتبارات الفخر والهيبة بـ(معركة الأهرام)[87]. وتتفق معهم ليلى عنان (1950-2019م) قائلة: "أسماها بونابرت "معركة الأهرام" مع أن الأهرام بعيدة عن إمبابة، ولكن بونابرت وجد أن اسم "الأهرام" أعظم جاذبية وسحرا من اسم إمبابة. ولأن الجمهور الفرنسي سيفرح بالاسم الأسطوري فهو يجهل إمبابة، وبالفعل كان لهذا

81- Fisher, H.: op. cit, p.63.

82- Fisher, H: A History of Europe, Edward Arnold LTD, London, 1916,p.826.

83- الرافعي: تاريخ الحركة القومية،ج1، المرجع السابق، ص 82.

84- حظي كتاب هنري لورنس (الحملة الفرنسية على مصر) بتقدير كثير من الباحثين في الشرق والغرب، وكان في الأصل أطروحة نال بها درجة الدكتوراه في 1989م، تقول ليلى عنان: لقد "قال كل ما يمكن أن يقال عن الحملة بروح علمية دقيقة" وأنه استرشد بما قاله كل الفرنسيين والمصريين والإنجليز والأمريكان، وإن كانت تنتقده في استخلاصه للنتائج في خاتمة كتابه. ليلى عنان: الحملة الفرنسية في محكمة التاريخ، المرجع السابق، ص 217.

85- هنري لورنس: الحملة الفرنسية في مصر، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، 1995.ص149.

86- أندريه ريمون: المصريون والفرنسيون في القاهرة 1798-1801، ترجمة بشير السباعي، عين للدراسات والبحوث،2001م، ص 86.

87- هنري لورنس: المرجع السابق، ص149.

الاسم صداه الكبير لدى الكتاب الفرنسيين وخصوصا فيكتور هوجو[88] Victor Hugo(1802-1885م)[89]. والراجح أن فشر تأثر بهم على نحو ما. ولكن يُفتَرض أن المؤرخين يسمون الأشياء باسمها الواقعي وليس الدعائي.

الاستدراك الثاني: اعتبار انتصار نابليون في معركة إمبابة (الأهرام) انتصارا ساحقا، وكأن معركة إمبابة كانت –كما ترجم مُترجما كتاب فشر عن نابليون- "موقعة حاسمة"[90]. في حين أنها لم تكن كذلك؛ فقد "أكدت آخر الدراسات في هذا الموضوع، هذه الحقيقة حتى إن كثيرا من المؤرخين المحدثين يقولون عنها إنها لم تكن أكثر من "مناوشة" لم تذكر في التاريخ إلا لأنها فتحت أبواب القاهرة أمام بونابرت". وقد بالغ معاصرو بونابرت في عدد المحاربين المماليك وفي عدد ضحاياهم حتى تلائم أسطورة الجنرال الذي لا يُهزم[91]. ولم يكن فشر وحده من وقع في ذلك التهويل؛ فهناك من المؤرخين الغربيين من أطلق عليها "المعركة الأكبر في إمبابة...والتي تسمى معركة الأهرامات"[92].

ولا تعد معركة إمبابة من المعارك الفاصلة في التاريخ؛ لأن المعركة «الفاصلة» هي المعركة التي يترتب على نتيجتها تغيير كبير، وأنه لو انتهت بخلاف ما تمت، لكان الفرق هائلًا، وربما غير وجه التاريخ تبعا لذلك؛ لأنه لو هُزِم فيها نابليون، لأمكنه الرجوع إلى الوراء ريثما ينظم نفسه، ويعيد الكرة، وكان في إمكانه -على فرض فشله نهائيا- أن يعود إلى سفنه في الإسكندرية بعد أن يخسر ربع أو نصف جيشه، ولم يكن نيلسون قد حطم الأسطول الفرنسي في (أبوقير) بعد[93].

ولعل مما يفند كونها (معركة حاسمة) ويدعم كونها (مناوشة) وأن وصف فشر لانتصار نابليون فيها بأنه ساحق يعد مبالغة؛ ما ذكره الجبرتي من قصر الوقت الذي نشب

88- ليلى عنان: الحملة الفرنسية في محكمة التاريخ، ج2، المرجع السابق، ص 35.

89- فيكتور هوجو: أطول شعراء جيله عمرا وأوسعهم شهرة ومما ساعد على انتشار شعره وشعبيته اضطهاد نابليون الثالث (1848-1870م) له ونفيه ودفاعه عن الفقراء والبؤساء، كان هوجو معجبا إلى حد الانبهار بنابليون بونابرت؛ فكتب في مدحه قصائد عديدة؛ فكان من أهم الذين أسسوا أسطورة نابليون وحملته على مصر وجعلها شخصية أسطورية لا مثيل لها حيث أخرجها من نطاق البشر، رغم أنه لم يذكر عن الحملة إلا كلمات كالنيل والأهرامات ومصر وأحداثا مبهمة، لا يذكر إلا اسمها، فأصبحت وكأنها حقيقة واقعة ومن مسلمات التاريخ، ولا ننس الدور الذي لعبته جيوش محمد على (1805-1848م) وأسطوله في الحرب بين الدولة العثمانية، وثوار اليونان؛ هذه الحرب التي اشتعلت لها قصائد شعراء الغرب، وكان فيكتور هوجو من أكثر الشعراء هجاء وعنفا ضد المسلمين، في ديوانه الشهير "الشرقيات"؛ حيث نظر إلى تلك الحرب كحرب دينية، وهاجم الإسلام بضرواة، واعتبر هوجو القائد إبراهيم بن محمد علي الذي انتصر، من السفاحين. إلى آخر ما يصوره العقل الغربى عادة من تخيلات عندما يتعامل مع «بربرية المسلمين» والحرب ضد "الهلال القاتل". وقد يشرح هذا تأكيد هوجو المستمر على انتصار نابليون المزعوم فى مصر، وكأنه انتقام رجعى لما رآه ذلك اليوم من الجنود المسلمين، إلى آخر هذا الهجاء الدموى. ليلى عنان: الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير، دار الهلال، القاهرة، 1998م، ص ص208-217.

90- فشر: نابليون، المرجع السابق، ص 68.

91- ليلى عنان، الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة، المرجع السابق، ص 36.

92 - Dykstra, D.: op. cit, p ,122.

93- أحمد حافظ عوض: المرجع السابق، ص ص139، 140.

فيه القتال؛ فيقول: "واستمر الحرب والقتال نحو ثلاثة أرباع ساعة ثم كانت الهزيمة"[94]. وقدر نابليون قوة المماليك ما بين (3000) ثلاثة آلاف أو (4000) أربعة آلاف، بينما كانت قوة الفرنسيين (24000) أربعة وعشرين ألف فرنسي[95]، ويرى هنري لورنس "أن خسائر المماليك بالمعنى الحقيقي للمصطلح تافهة؛ فالجانب الرئيس من القتلى يتألف من المشاة وخدم السلاح[96]؛ حيث كان عدد القتلى من الفرنسيين 210 قتيلا، ونحو 150 جريحا، أما المماليك فقد فقدوا ما بين 700 و800، هلك كثير منهم خلال عبوره النيل سباحة[97]. وهذا الفارق الكبير في القوة بين الفرنسيين والمماليك، ثم هذا العدد القليل من القتلى والجرحى من الجانبين ليؤكد على أنها لم تكن معركة كبيرة، فضلا عن كونها حاسمة أو فاصلة.

ولكن فشر وبعض المؤرخين، والشعراء الفرنسيين حولوها إلى معركة أسطورية كجزء من أسطورة بونابرت نفسه[98]. ولعل ما فيما ذكره الرحالة الفرنسي سافاري Savary (1750-1788م) يكشف جانبا من الصورة فيزيد الأمر وضوحا حول ما إذا كانت معركة إمبابة موقعة كبرى أم لا، وذلك بتسليط الضوء على إمكانيات المماليك الحربية ومدي جاهزيتهم الدفاعية في الذود عن البلاد ومدى صدق حدسه وتوقعه عن مآل القاهرة إذا هوجمت من قبل جيش حديث التسليح والتدريب. فقد زار سافاري القاهرة قبل الحملة بحوالي عشرين عاما في سنة 1778م؛ فكان مما رواه أن القلعة بها ستة مدافع عتيقة، وتساءل هل مثل هؤلاء الجنود يستطيعون أن يثبتوا لحظة واحدة في ميدان القتال بإزاء عدة صفوف من الجنود الأوروبية؟ لا جرم أن الدولة الحربية التي تهاجم مصر تستولى عليها دون مقاومة [99]. لكن المماليك والمصريين قاوموا بغض النظر عن النتيجة.

ومن ثم يبدو بجلاء أن فشر قد جانبه الصواب حين تماهي مع الدعاية الفرنسية حول معركة إمبابة من حيث التسمية بغير الاسم الواقعي، ومن حيث تضخيم الوصف بأنها موقعة حاسمة، وانتصار نابليون الساحق على المماليك.

94- الجبرتي: المصدر السابق، ج4، ص 78.

95- اختلفت المصادر الفرنسية في تقدير عدد قوات عدد المماليك؛ فعلى سبيل المثال يقول برتييه: استولى الفرنسيون على قرية إمبابة بعد أن دافع عنها نحو ألف وخمسمائة مملوك، ومثل هذا العدد من الفلاحين دفاع الأبطال ورفضوا التسليم فماتوا قتلا وغرقا، وبرتييه رئيس أركان حرب الحملة شهد معركة إمبابة إلى جانب نابليون، فكلامه حجة. وقال ميو Miot وهو شاهد عيان في مذكراته: إن قوة مراد بك تقدر بستة آلاف من المماليك وعدد كبير من الفلاحين والعرب. وذكر ريبو أن مراد بك تحت إمرته ستة آلاف من المماليك رابطوا على الشاطيء الغربي للنيل وارتكزت ميسرتهم إلى الجيزة وميمنتهم إلى قرية إمبابه حيث كان يدافع عنها ١٢ ألفاً من الفلاحين. وتكلم دى لاجونكيير عن حامية إمبابه؛ فقال: «من الصعب أن نتصور أن عشرين ألفا كانوا محتشدين فى قرية صغيرة كإمبابة، والمعقول أن القوة النظامية من هذا العدد كانت مؤلفة من أربعة آلاف فقط من المشاة، ولكن هذا العدد قد وصل إلى الضعف أو الثلاثة أمثال بمن انضم إليهم من المتطوعين، وكانت خسائر الأهالى عظيمة فغرق معظمهم في النيل. وقد اختلف الرواة فى تقدير عدد المماليك الذين اشتركوا فعلا في المعركة. عبد الرحمن الرافعي: المرجع السابق، ج1، ص ص 216-218.

96-هنري لورنس: المرجع السابق، ص149.

97- بيتر جران: المرجع السابق، ص60.

98- ليلى عنان: الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة، المرجع السابق، ص 37.

99- Savary, C. E: Lettres sur l'Égypte, 3 vol. Paris an VII (1798), pp. 101,102.

المراجعة الثالثة: رؤية فشر للمصريين وعقائدهم

يقول فيشر:

the position of the French army in the midst of a fanatical Moslem population was necessarily insecure. Napoleon was alive to the necessity of humouring the religious prejudices of a superstitious race(100)

الترجمة: كان مركز الجيش الفرنسي وسط السكان المسلمين المتعصبين غير آمن بالضرورة. وكان نابليون على وعي بضرورة مجاراة التحيزات الدينية لأمة تؤمن بالخرافات.

وقبل المضي قدما في بيان ما يمكن استدراكه على فشر فيما ذهب إليه يجب لفت الانتباه إلى ما ورد من خطأ في الترجمة في النسخة المترجمة، لهذه الجملة في كتاب نابليون؛ حيث ورد فيها الترجمة التالية: "وسط أمة إسلامية شديدة الاستمساك بدينها"[101]. وغني عن البيان أن الفرق هائل بين أن يوصف مسلمو مصر بشدة التمسك بدينهم (وهو ما ورد في الترجمة ولم يقله فشر) وبين أن يوصفوا بالتعصب الذي زعمه فشر.

الاستدراك الأول: دمغ فشر مسلمي مصر بالتعصب

ولعل أبلغ ما يرد هذا الاتهام رأي شهود العيان ـ من الفرنسيين أنفسهم الذين شاركوا في الحملة ـ في مسلمي مصر؛ فقد كتب أحدهم كما جاء في (وصف مصر): لنضع أنفسنا في نفس وضعهم، وهو أمر ينبغى فعله على الدوام قبل إصدار أى حكم على طباع أمة ما... فلو أن المسلمين قد أنزلوا جنودهم عنوة عن طريق البحر في أحد أقاليمنا شديد التمسك بدينه الكاثوليكي، وتحكموا فى مدنه الرئيسة؛ فهل يظن أحد أن فرقهم العسكرية...سوف تستقبل في قرانا بالترحاب؟ وأنها لن تقاوَم بالسلاح...أو أن الحكومة المخلوعة -والتى لم تُصفَّ نهائياً بعد- لن تحرضهم على حرب نبيلة؟ حسنا، هذا بالضبط هو موقف المصريين نحونا[102]. فهل اطلع فشر على ما خطه علماء الحملة في (وصف مصر) عن المصريين بهذا الصدد؟ ولو أن فشر وصف المصريين كما نعت (وصفُ مصر) سكانَ فرنسا بأنهم "شديدو التمسك بدينهم" بدلا من التعصب لكان أليق وأدق. ولكنه بدا ملوكيا أكثر من الملك وفرنسيا أكثر من الفرنسيين أنفسهم. ورغم التسليم الكامل بأنه من حق المصريين أن يقاوموا ويثوروا في وجه أي محتل غاصب اعتدى على وطنهم وحريتهم وكرامتهم ومقدساتهم وأن المقاومة العنيفة المسلحة حق أصيل ومشروع ضد أي معتد عليهم اعتداء غير مشروع. وأن هذه المقاومة لا يمكن وصفها بالتعصب. أليس واردا أن يكون المرء متمسكا بدينه دون تعصب؟! والجواب: بلى، بكل تأكيد. وكان هذا حال المصريين.

ومما يجدر لفت الانتباه إليه أن فشر كتب هذا في كتابه (نابليون) الذي صدر عام 1913م في الوقت الذي كان فيه إدوارد جراي يشغل منصب وزير خارجية بريطانيا -منذ 1905- وما فتئ جراي واللورد كرومر يتهمان المصريين بالتعصب الديني الإسلامي عند وقوع حادثة دنشواي 1906م! وهو الأمر الذي نفاه مصطفى كامل عن المصريين قائلا: "إنى أؤكد بحق أقدس شىء فى الدنيا أنه لا وجود للتعصب الدينى فى مصر، نعم إن الإسلام سائد فيها؛ لأنه دين الأغلبية العظمى، ولكن الإسلام شيء والتعصب شيء آخر!...إن الشعب المصرى ليس متعصبا أبداً ولكنه شعب كريم أبيّ، ينشد العدل والمساواة، ويطلب أن يُعامَل

100_ -Fisher, H.: Napoleon, op. cit, ,p.63.

101- فشر: نابليون، المرجع السابق، ص 69.

102- دي بوا – ايميه جولوا: رحلة إلى أعماق الدلتا، موسوعة وصف مصر،ج3، دراسات عن المدن والأقاليم المصرية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2002م، ص103.

كشعب حر لا كقطيع من الأغنام...وهو مطلب عدل وغير مبالغ فيه أبدا"[103]. واتهام فشر المصريين بالتعصب يوحي وكأنه كان يتكلم بلسان وزير خارجية بلاده آنذاك إدوارد جراي وبلسان كرومر، ويسجل هذا في كتاباته التاريخية -رغم أنه كان يتناول حقبة زمنية مختلفة- وكأنه كان يعبر عن وجهة النظر الرسمية لبلاده كأي سياسي وليس كمؤرخ، في الوقت الذي لم يكن فشر قد تولى فيه منصب وزير المعارف بعد، كما سبقت الإشارة.

وثمة شهادات فرنسية لا تعبر عن تسامح المسلمين المصريين فحسب؛ بل تعبر عن إفراطهم في التسامح حين قاموا بحماية الفرنسيين إبَّان ثورة القاهرة الأولى من بطش الثائرين. وقد اعترف الكتاب والمؤرخون الفرنسيون بأن الطبقة الوسطى في القاهرة قد برهنت خلال تلك الثورة على مروءة كبيرة وعواطف نبيلة بإيواء الفرنسيين العزل من السلاح، قال لويس ريبو[104]Reybaud Louis: إن جميع الفرنسيين الذين التجأوا إلى منازل الطبقة الوسطى قد اطمأنوا فيها على حياتهم وألفوا بها النجدة والمروءة. وكتب (دينون) وهو شاهد عيان يصف مروءة الطبقة الوسطى من سكان القاهرة: لئن كانت العامة وبعض الكبراء والأتقياء قد ظهروا قساة فى ثورة القاهرة؛ فإن الطبقة الوسطى من سكان المدينة برهنت على أسمى عواطف الإنسانية والمروءة رغم فوارق العادات والأخلاق والدين واللغة التي كانت تفصل بيننا، فبينما كانت صيحات التحريض على القتل تُسمع من المآذن، وبينما كان شبح الموت والدم ينتقل في الشوارع؛ فإن أصحاب المنازل التي كان يسكنها الفرنسيون قد آووهم وأظلوهم بحمايتهم وأمدوهم بما يحتاجون؛ فمن ذلك أن عجوزا كانت تقيم في الحى الذى كنا نسكن فيه؛ فأخبرتنا أنه لا يفصل بيننا وبينها إلا حائط مشترك، وأنها مستعدة لأن تؤوينا في بيتها، وصرحت لنا أنه في حالة الهجوم علينا أن نهدم الحائط المشترك لنكون في دارها. وحدث أن جاراً لنا أمدنا بالمؤونة التى تكفينا دون أن نطلب منه ذلك، مع أنه لم يكن بيع ولا شراء في تلك الأوقات العصيبة؛ إذ كانت المجاعة تتهدد العاصمة...وجلس أمام دارنا يدخن (الشبك)[105]، كأنها داره ليصرف عنا أنظار الثوار. وحدث أن اثنين من الفرنسيين كانا يسيران في الشوارع؛ فاختطفهما مجهولون وذهبوا بهما إلى دار لا يعرفانها، فخُيِّل إليهما أنهما وقعا في كمين، ولم يشكا أنهما صارا فريسة القتل والتعذيب؛ فثارت ثائرتهما، ورأى الممسكون بهما أنهم حين عجزوا عن إقناعهما أنهم لا يريدون بهما سوءا، فأعطوهما أطفالهم ليطمئنا على حياتهما[106]! إلى هذا الحد بلغ التسامح بل الإفراط فيه!

وثمة مثال آخر لعله يجلي الصورة أكثر وينفي اتهام فشر للمصريين المسلمين بالتعصب؛ ما جاء في (وصف مصر): قابلنا قرية...اقتحمتها قواتنا وأحرقتها في العام الماضى عقاباً لهجمات أهلها المتكررة على قواربنا، وبدا أن هؤلاء الناس لا يُكنُّون أي ضغينة على أمتنا، كما سبق أن لاحظ بحق المسيو دينون، وبعد كل هذه الآلام التى كابدتها مصر لا

---

[103]- عبد الرحمن الرافعي: مصطفى كامل، المرجع السابق، ص ص 213، 214.

[104]- المسيو لويس ريبو كان على رأس علماء ومؤرخي الحملة الذين قاموا بتجميع المادة العلمية لكتاب (التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية على مصر) من وثائق وأبحاث ويقع في عشرة مجلدات. محمد عبد الحميد الحناوي: وثائق الحملة الفرنسية ١٧٩٨-١٨٠١م مصدر لتاريخ مصر الحديث، نور بوك، د.ت، ص8.

[105]- الشبك: في التركية جبوق وجوبوق بالجيم المشربة فيهما: الأنبوبة والعصا والماسورة، وشبك الدخان عبارة أنبوبة في طرفيها مبسم وفي الآخر مجمرة يوضع بها التبغ. أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، القاهرة، 1979م، ص 133.

[106]- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية،ج1، المرجع السابق، ص ص 289، 290.

نستطيع أن نسوق دليلا واحداً على أن جندياً واحداً من جنودنا قد اغتيل هناك...ولقد سافر واحد منا بمفرده من سمنود إلى القاهرة، وكثيراً ما قمنا برحلات طويلة، اثنين اثنين، وبدون أية حراسة، إما في أعماق الدلتا، وإما في مقاطعات مصرية أخرى...ولا ريب أن ثمة بلدانا في قارتنا الأوربية يضطرب فيها الأمن؛ بحيث يحتاج المرء أثناء السفر فيها إلى حراسة أكبر من تلك"[107]. وهذه السماحة لا تتناقض مع شدة البأس في المواجهة المكشوفة الصريحة لدى خوض معارك المقاومة التي أصلى المصريون بنارها الغزاة الفرنسيين مرارا.

والاستدراك الثاني: وصف فشر إيمان المصريين بأنه إيمان بالخرافات[108]!

ولأن السياقات تحدد الإطلاقات؛ فإن سياق حديثه بعد وصف مسلمي مصر بالتعصب لا يفهم منه إلا أن حديثه موصول عن إيمان المصريين وبماذا يؤمن أغلبهم؟ إنه الإسلام، وهو إذن ينعت إيمانهم بدينهم بأنه إيمان بالخرافات. وبما أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وأنه لا يصح الحكم على شيء إلا بعد تصوره تصورًا تامًا؛ حتى يكون الحكم مطابقًا للواقع، وإلا حصل خلل كبير جدا؛ فالذي يبدو بجلاء أن فِشر ليس لديه معرفة جيدة وشاملة بالإسلام تتيح له تكوين تصور صحيح واضح عنه حتى يتمكن من الحكم عليه حكما مطابقا للواقع، ومن ثم فقد حدث خلل كبير لديه في التصور فأصدر حكمه بأنه دين الخرافات، ولو كان لديه أدنى معرفة بالإسلام لعلم أن أول آية من القرآن نزلت كانت تحث على القراءة وطلب العلم، ولَعَلِمَ أن الإسلام يُعلِي من قدر العلم والعلماء على نحو لافت جدا لا نظير له؛ ولهذا نجد من

---

[107]- دي بوا – ايميه جولوا: المصدر السابق، ص ص102-104.

[108]- ترجمة (a superstitious race) بالضبط: أمة تؤمن بالخرافات. ولكن مترجم كتاب (نابليون) لفشر ترجمها بـ(أمة متعلقة بالقديم)! وهذا تحريف كبير في الترجمة، ولو قصد فشر هذا لقال مثلا: ancient nation؛ لأن المعنيين مختلفان كثيرا. ومن أسف أن بعض المترجمين يتصرفون في ترجمة بعض النصوص بدوافع يرونها نبيلة، ولكن هذا غير مقبول بالمرة، ومن أمثلة ذلك ما فعله مترجم وصف مصر الذي اعترف أنه حذف من الجزء الخاص بالأقباط نصف جملة وجد أن "اللياقة تقتضى حذفها"! وحذف هامشا من أربعة سطور أثار -عند نشره بمجلة الثقافة- ردود فعل لم يكن يتوقعها! واعترف بأنه حذف: "آخر عبارة فى الكتاب حوالي سطر ونصف؛ إذ وجد من الأفضل ألا تترك هذه الجملة "طعما مريرا فى حلق القارىء بعد صحبة ممتعة مع مؤلف حاول جهده أن ينصفنا طيلة مؤلفه"! ويقدم اعتذاره مع تمنيه أن يكون مقبولا! - (موسوعة وصف مصر، ج1، المصريون المحدثون، ترجمة زهير الشايب، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2002م، ص10). ويرى الباحث أن هذا الاعتذار غير مقبول بالمرة. وكان يجب الالتزام بالترجمة الأمينة مهما كانت صادمة أو مسيئة؛ لكي نعرف حقيقة ما كتبوا كما هو، وليعلم القارئ كيف كان هؤلاء يرون المصريين. أما أن يتدخل بالحذف؛ فهذا غير مقبول البتة. ليس هذا فحسب، بل إن مترجم وصف مصر اعترف في مواضع أخرى بأنه حرف (خفف، على حد تعبيره) لدى ترجمته ما كُتب عن القرآن والرسول والإسلام عموما بحجة أنه "لم نجد من اللائق تقديم الترجمة الصحيحة"؛ (وصف مصر، ج1، المصدر السابق، ص306). فهذا خطأ بل خطيئة. لأنه كان يجب أن يقدم الترجمة الأمينة مهما كانت غير لائقة أو صادمة؛ إذ إن كثيرا من المستشرقين كتبوا عن الشرق كتابات تبدو لنا مسيئة سواء عن الدين أو الحضارة والتاريخ ومع ذلك ترجمت كما هي كي نرى ونعرف ما يقولون ونتولى التوضيح والرد. أما حجب بعض النصوص بحذفها أو تحريف بعض النصوص في الترجمة فهذه إساءة من حيث أرادوا الإحسان. والمثير أن المترجم يقول في مقدمته للترجمة: لقد آثرت أن أقدم ترجمة كاملة أمينة "نصا وروحا" لكل ما ذكره المؤلف خاصا بنا وبمعتقداتنا، ولم أتدخل إلا في أضيق نطاق ممكن لاعتبارات عديدة. ويوصي المترجم بأنه ينبغى علينا أن "نواجه بشجاعة ما يقال عنا؛ فتجاهُل ذلك أو الصمت عنه ليس هو الوسيلة المثلى"، وإن الأقوياء لا يخافون معرفة ما يقال بشأنهم ولا أظن أحدا يحاول أن يشكك في قوة عقيدتنا". نفسه، ص ص 10، 11. وفي هذا تناقض واضح بين قوله وفعله!

المستشرقين من أنصف الإسلام لأنه عرف عنه الكثير؛ فكون تصورا صحيحا وحكم حكما دقيقا. ولم يكن مطلوبا من فشر أن يقرأ لعلماء مسلمين كتبوا بالعربية عن الإسلام، بل ثمة كتابات أوروبية كثيرة، لكن يبدو أن فشر لم يقرأ جيدا عن الإسلام مما كتبه العرب أو الأوروبيون! على نحو يثير الإشفاق، وهو الأكاديمي المؤرخ وزير المعارف! فالإسلام الذي يحض على العلم وإعمال العقل ونبذ الخرافة ويطالب دوما باحترام العقل وبتقديم الدليل "قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين"[109]، ولا يساوي أبدا بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون- كيف يوصف من يؤمن به بأنه يؤمن بالخرافات؟!

والذي يبدو بجلاء أن فشر يتماهي مع نظرة كثير من الأوربيين على نحو ما ذكر مواطنه المستشرق البريطاني (وليام مونتجمري وات) W. Montgomery Watt (1909–2006م): "إن الحضارة الأوربية كانت ولفترة طويلة، تتصرف كما لو أنها الوحيدة التي تستحق الاهتمام، واعتبر الأوربيون أنفسهم هم وحدهم -من بين كل البشر- الجديرين بالاعتبار"[110]! كما يبدو أن فشر لديه حكم مسبق على المصريين ومعتقداتهم، وأنه من أولئك المؤرخين الذين انتقدهم أرنولد توينبي "الذين ينتسبون إلى جيل معين، ولا يدركون عادة، الدرجة التي يرون بها تاريخهم المعاصر في نطاق إطار مقرر، وينسقون الأحداث وفقا لأشكال ثابتة، أو يصبونها فى قوالب معينة يختارونها أحيانا وهم في أحلام اليقظة، قد يكون هؤلاء القوم غير واعين على الإطلاق للأسلوب الذي تلتزمه عقولهم، بسبب التكوين الروتيني الذي صاغوه للقصة، موصيا كُتّاب التاريخ بأنه يجب أن يناقشوا التاريخ من غير فروض سابقة، ويصف توينبي أولئك المؤرخين الذين يعجزون عن فحص فروض وضعوها مسبقا بأنهم "الأشدهم حماقة"؛ لأنهم يتصورون -وهم سعداء- أنهم برآء من أي شيء منها! مشبها إياهم بصورة سجين لا يشعر بالأغلال التى تقيده[111].

والواضح أن فشر يعبر عن صورة مورثة عن الإسلام في التراث الغربي ويردد ما قاله فلاسفة أوربيون مثل توما الأكويني (1225-1274م) عن رسول الإسلام، بأنه قام بتحريف جميع الأدلة الواردة في التوارة والأناجيل من خلال الأساطير والخرافات التي كان يتلوها على أصحابه، ولم يؤمن برسالة محمد إلا المتوحشون من البشر"[112]! وتؤكد المستشرقة الألمانية سيجريد هونكه Sigrid Hunke (1913-1999م) ذلك فتقول: لقد استقر في أذهان السواد الأعظم من الأوربيين الازدراء الأحمق الظالم للعرب، الذي يصمهم -جهلا وعدوانا- بأنهم رعاة الماعز...الأجلاف...وعبدة الشيطان، ومحضرو أوراح الموتى وأصحاب التعاويذ وأعمال السحر الأسود...وأن بلاد الإسلام هى عالم الخرافات والأساطير"[113].

والرد الأمثل على فشر سنأتيه به من أبناء حضارته، مثل المستشرق الفرنسي إدوارد مونتيه Edward Montet (1856-1934م) الذي وضح الطابع العقلي للعقيدة الإسلامية، توضيحا جيدا، في العبارات التالية: "الإسلام في جوهره دين عقلي، بأوسع معانى هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية، فإن تعريف الأسلوب العقلى Rationalism بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، ينطبق على الإسلام تمام الانطباق...والحق إن لدين محمد كل العلامات التي تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل. وتتلخص العقيدة الإسلامية، من وجهة نظر المؤمنين، في الاعتقاد بوحدانية الله ورسالة نبيه...وهما أمران يستقران في نفس

---

[109]- سورة البقرة، آية 111.
[110]- محمد عمارة: شهادات غربية لتراث الاسلام، هدية مجلة الأزهر،شعبان1436هـ(مايو2015م) ص30.
[111]- أرنولد توينبي: مختصر دراسة التاريخ، ج4، ترجمة فؤاد محمد شبل، المركز القومي للترجمة، عدد1717، القاهرة، 2011م، ص ص 82، 83.
[112]- محمد عمارة: الإسلام في عيون غربية، دار الشروق، القاهرة، 2008م، ص67.
[113]- نفسه، ص ص 68، 69.

الرجل المتدين على أساس ثابت من العقل والمنطق وتلخصان كل تعاليم العقيدة التي جاء بها القرآن. وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهى على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة في الدين وفى نشاط الدعوة إلى الإسلام...إن هذا كله يكون الأسباب الكثيرة التي تفسر لنا نجاح جهود دعاة المسلمين، وكان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد، خالية كل الخلو من جميع التعقيدات الفلسفية، ثم هي تبعا لذلك في متناول إدراك الشخص العادي، أن تمتلك، وإنها لتمتلك فعلا قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس[114]. هذا غيض من فيض لو اطلع عليه فشر لما اشتط وغلا ونبا في وصف مسلمي مصر بالتعصب وإيمانهم بأنه إيمان بالخرافات.

وقد سبق الذكر أن فشر التقى إرنست رينان في باريس وتردد على منزله وتتلمذ على يده ونمت بينهما صلات المودة؛ فكان لذلك آثار عميقة في أساليب فشر ومناهجه، والراجح أن فشر تأثر برينان الذي كان حينذاك في أواخر عقده السابع من العمر، بينما كان فشر في منتصف عقده الثالث. فإذا استعرضنا بعض أهم أفكار وآراء رينان في هذا الصدد سنلاحظ التشابه بين أفكار وآراء التلميذ فشر وأستاذه رينان.

من المعلوم أن رينان عالم "متبحر في اللغات والفلسفات والتاريخ، إلا أنه حين تناول الإسلام قال فيه كلاما جارحا يدل على انعدام الفهم للإسلام[115]، ونظرة غير موضوعية؛ فيقول: "الإسلام هو تعصب لم تكد تعرف مثيله...الإسلام هو الاستخفاف بالعلم"[116]، ويقول: "الأحرار الذين يدافعون عن الإسلام لا يعرفون الإسلام، إن الإسلام هو التوحيد غير المميز بين ما هو روحي وما هو دنيوي، إنه سيطرة عقيدة وهو أثقل قيد حملته الإنسانية"!..."إن ما يميز المسلم تمييزاً جوهرياً هو كراهية العلم، والاقتناع أن البحث لا فائدة منه وأنه عبث وشبه كفر"[117]! المثير أن من يقول هذا كانت أطروحته للدكتوراه عن ابن رشد[118]!

ويبلغ رينان الذروة في الشطط والتطرف فيقول:"إن المسلمين هم أول ضحايا الإسلام...وتحرير المسلم من دينه هو أكبر خدمة يمكن أن تسدى له"[119]! وفوق هذا فقد كان رينان عنصريا يؤمن بتفوق الأوربيين وضرورة سيادتهم العالم؛ فمن أقواله: "خَلقت الطبيعة عرقًا من العمال، هو العرق الصيني المتصف بمهارة يده العجيبة وبخلوه من عزّ النفس،... ثم عرقا من الفلاحين: الزنج،... ثمَّ عرقاً من الأسياد والجنود الأوروبيين. ليعمل كل واحد لما خُلق من أجله ليستقِم الأمر"[120]! فهل التشابه في هذه الآراء العنصرية المتطرفة بين فشر وأستاذه رينان أتى محض صدفة؟

وفي الواقع لا عذر لفشر على هذه الصورة المشوهة التي يقدمها عن المصريين ودينهم؛ لتوافر المراجع عن مصر والمصريين والإسلام والمسلمين وبلغات أوربية على نحو ما سبق ذكره.

---

[114]- نفسه، ص ص 98، 99.

[115]- حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، دار المعارف، القاهرة، 1984م، ص 157

[116]- محمود علي سرائب: القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، سلسلة القران في الدراسات الغربية8،النجف، العراق، 2021م،ص90، 91.

[117]- عبد الرحمن بدوي : موسوعة المستشرقين، ج1، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1993م، ص ص 313-317.

[118]- في الوقت الذي يرى فيه المؤرخ حسين مؤنس أن رينان قال كلاما جارحا عن الإسلام نتيجة انعدام فهم، يرى الفيلسوف عبد الرحمن بدوي (1917-2002م) أن رينان خلط متعمدا بين العرب والحضارة الاسلامية؛ فأتى كلامه مشوبا بالمغالطات. نفسه، ص ص 313-317. ويتفق الباحث مع بدوي في أن رينان خلط متعمدا بين الاسلام (عقيدة وشريعة) وبين بعض ممارسات وأحوال المسلمين التي لا تتفق مع ما جاء به الإسلام، وهو ما لا يخفى على أي باحث منصف.

[119]- نفسه، ص ص 313-317.

[120]- محمود علي سرائب: المرجع السابق،ص ص90، 91.

المراجعة الرابعة: نتائج الحملة ونشأة مصر الحديثة

يقول فشر في كتابه (نابليون):

But the fact that there was an element of unsound calculation in the whole Egyptian expedition, and more particularly in the two unrealised projects which were em- broidered upon it, does not disparage the grandeur and permanence of its results. Napoleon introduced Egypt to the methods of a civilised government[121]

الترجمة: إن الحملة الفرنسية على مصر بوجه عام، والمشروعين اللذين أضيفا إليها بوجه خاص[122]، وإن شابها كلها شيء من الخطأ في التقدير؛ فإن ذلك لم يقلل من عظمة وديمومة نتائجها. ذلك أن نابليون أتى إلى مصر بنظم الحكومة المتحضرة.

ويقول فشر في كتابه (تاريخ أوربا في العصر الحديث):

Modern Egypt, with its superficial glaze of French civilization, dates from the battle of the Pyramids, where Bonaparte destroyed the savage power of the Mamelukes [123]

الترجمة: "وترجع نشأة مصر الحديثة بطلائها البراق السطحي من الحضارة الفرنسية إلى معركة الأهرام التي قضى فيها بونابرت على السلطة الهمجية للمماليك.

وهنا استدراكان على فشر:

الأول: وصفه لنتائج الحملة بالعظمة والاستمرارية وفي مقدمة تلك النتائج أن نابليون أتى إلى مصر بنظم الحكومة المتحضرة؛ فكان ذلك بداية لنشأة مصر الحديثة!

وأفضل من يرد على فشر في زعمه أن ثمة مزايا للحملة الفرنسية على مصر وأن لها نتائج عظيمة على مصر- هو فشر نفسه، الذي استنكر أن يجلب أي احتلال منافع للأمة التي تتعرض له. ولكن في سياق مختلف لم يكن يقصد به حملة نابليون على مصر؛ حيث قال: "كيف يمكن لامرئ أن يعد انتشار الاستعباد الفكرى أمراً يستوجب التقدير والتهنئة، مهما تعددت منافع ذلك الاستعباد وتعاظمت خيراته"[124]. ما أحكم هذا لو طبق على حالة مصر التي تعرضت لعدوان فرنسا، فكيف يتصور أن حملة عسكرية أتت لاستعباد شعب آخر أنها تستحق التقدير "مهما تعددت منافع هذا الاستعباد وتعاظمت خيراته"؟ كيف يجلب الاحتلال- الحرية؟ وهو نقيضها! لكن ازدواجية المعايير لدى فشر هي التي تجعله يرى أن مصر رأت الخير على يدي المحتلين المستعبدين الفرنسيين، لكن حينما يتعلق الأمر بألمانيا النازية أو إيطاليا الفاشية أو روسيا الشيوعية فلفشر رأي آخر.

ومن أبلغ ما يُرَدُّ به على فشر ما قاله المؤرخ الفرنسي أندريه ريمون: "والحال أن نرجسية تاريخية أوصلها تمجيد (الملحمة النابوليونية) إلى ذروتها، والمبالغة في تقدير أهمية النتائج العلمية للحملة قد بررتا - من الجانب الفرنسي- تقييما إيجابيا بشكل مبالغ فيه للحملة

121_ −Fisher, H.: Napoleon, op. cit. p. 71

122- يقصد بهما: غزو الشام واستانبول، التي لم يسمها فشر قط بهذا الاسم الذي صار علما لها منذ أن فتحها محمد الثاني في عام 1453م. إنما ينحو دائما نحو تسمية أكثر المؤرخين الغربيين لها باسمها القديم وهو القسطنطينية.

123_ −Fisher, H: A History of Europe, op. cit,p. 826.

124- فيشر أوربا نفسه، ص (ص)

ولنتائجها، يصل إلى حد إرجاع يقظة مصر إلى عام 1798"[125]. واللافت أن أندريه ريمون ينتقد مبالغة قومه في تقييم الحملة الفرنسية ونتائجها، وأنها أيقظت مصر أو "نشأة مصر الحديثة" على يدها كما عبر فشر، في حين يبدو وهو الإنجليزي وكأنه فرنسي أكثر من الفرنسيين وملوكي أكثر من الملك كما يقال!

هذه النرجسية التاريخية -التي أشار لها ريمون والتي تماهي معها فشر وزعم لحملة بونابرت على مصر نتائج عظيمة ودائمة- راجت، وسر هذا الرواج ما ذكره المؤرخ الفرنسي إدوارد دريو Edouard Driault (1864-1947م) حين قال: "لو لم يصبح بونابرت إمبراطوراً، لما صورت حملته على مصر بمثل ذلك التضخيم، لأن الحملة كانت في الحقيقة هزيمة عسكرية وسياسية محققة"[126]. وهذا رأي سديد؛ فلقد نجح نابليون في تجميل وتلميع حملته وجعلها استثائية "عبر فن البروباجنده الناجز الذي أجاده" على حد قول ريمون الذي يقرر أيضا حقيقة تاريخية ورغم بساطتها وبداهتها وجلائها؛ فإن فشر يُغفِلُها أو يتغافلها، وهي أن "التاريخ لم يعرف احتلالا ميمونا سعيدا. واحتلال فرنسا لمصر لا يشكل استثناء لهذه القاعدة"[127]، لكن فشر وآخرين يريدون أن يجعلوا من حملة بونابرت استثناء لهذه القاعدة!

وتجزم عفاف لطفي السيد (1933- م) بأن الاحتلال الفرنسي "لم يدم إلا فترة قصيرة للغاية لا تكفي لأن يترك خلفه أية آثار في مصر. ولم يغير مصر – بالقطع- اقتصاديا أو سياسيا أو ثقافيا، على الرغم من أنه كثيرا ما ترددت مزاعم بأنه فعل ذلك"[128]. ويرى رءوف عباس (1939-2008م) أن بعض المؤرخين يبالغون في تقدير قيمة الآثار الثقافية للحملة الفرنسية؛ فيرجعون تاريخ الطباعة الحديثة والمسرح الحديث في مصر إلى عهد الحملة...ولكننا لا نميل إلى تأييد تلك الآراء لغياب القرائن التاريخية التي تؤيدها[129].

وهكذا يبدو جليا أن فشر من الذين يضخمون أو يختلقون آثارا إيجابية للحملة الفرنسية على مصر. وقد عبر الجبرتي عن نظرة المصريين لمدة الحملة بأنها أعوام الملاحم والمحن والأهوال والشرور بقوله عن سنة قدومها: "هي أول سني الملاحم العظيمة، والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة، وتضاعف الشرور، وترادف الأمور، وتوالي المحن، واختلال الزمن، وانعكاس المطبوع، وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال، واختلاف الأحوال، وفساد التدبير، وحصول التدمير، وعموم الخراب، وتواتر الأسباب"[130]. لذا ناصب المصريون الفرنسيين العداء وقاوموهم ولم يكن الجو ملائما لأن يأخذ المصريون عن أعدائهم بعض ما جاءوا به من مظاهر التفوق المادي[131].

وهذا الرأي يقترب مع الذين رأوا الحملة بمثابة "لا حدث"، بحكم أن مصر لم تكن "نائمة" البتة في عام 1798م وأن الآثار المباشرة للاحتلال كانت محدودة[132]. ويقول المؤرخان الفرنسيان فرانسوا فوريه François Furet(1927-1997م)، وديني ريشيه Denis Richet(1927-1989م): "لا يبدو من نواح شتى أن بونابرت كان ذلك الخالق العظيم لمصر الحديثة الذي طالما حدثونا عنه...وكانت بصماته قصيرة الأمد[133].

125- أندريه ريمون: المرجع السابق، ص 331.
126- كامل زهيري: مقدمة تاريخ الحركة القومية، ج1، لعبد الرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص١.
127- أندريه ريمون: المرجع السابق، ص 331.
128- عفاف لطفي السيد: مصر في عهد محمد علي، ترجمة عبد السميع عمر، المركزالقومي للترجمة، ط2، القاهرة، 2016م، ص62.
129- رءوف عباس: مصر في القرن التاسع عشر، دارالنهضةالعربية، القاهرة، 1984م، ص ص59، 60.
130- الجبرتي: ج 4، المصدر السابق، ص57.
131- محمد جمال الدين المسدي: مذكرات في تاريخ مصر الحديث، مكتبة الجهادالكبرى، د. ت، ص (ج).
132- أندريه ريمون: المرجع السابق، ص 331.
133- فرانسوا فوريه وديني ريشيه: الثورة الفرنسية، ترجمة: زياد العودة، ج2، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2012م، ص 200.

إن مزاعم فشر وغيره عن دور الحملة الفرنسية في إخراج مصر من كبوتها باطلة، لأنها ببساطة كما يرى أحمد زكريا الشلق (1948- م) "كانت حملة استعمارية من الألف إلى الياء، من خلال شهادات الفرنسيين والوثائق الفرنسية ذاتها، وإذا كانت مصر قد استفاقت، وقاومت، واطلعت على معطيات الحضارة الحديثة التي جاءت في ركاب الغزاة؛ فإنه لم يكن للفرنسيين فضل في دخول مصر إلى العصر الحديث، ويرى أن مصر كانت في سبيلها إلى إحداث نهضتها الذاتية التي ليست بالضرورة على النمط الغربي، وهناك مؤلفات باللغات الأوروبية أثبتت صدق هذه الرؤية من بينها كتابات: بيتر جران، ودانيال كريسليوس Daniel Crecelius (1937- م)، وكينث كونو Kenneth Cuno (1950- م)، إضافة إلى كتابات نيللي حنا (1942- م)، ورءوف عباس وغيرهم، مما يعني أن الحملة قطعت التطور الطبيعي لمصر نحو النهضة والتحديث. ويرى (زكريا الشلق) أن استفادة مصر من الحملة، جاءت عرضاً وبغير قصد من الفرنسيين، وتتمثل في حالات اليقظة والمقاومة الوطنية، وفي رؤية ما في يد المستعمرين من أسلحة الحضارة الحديثة التي بدأت مصر تأخذ بأسبابها في عصر محمد علي. وساق (الشلق) مثلا بالمجمع العلمي المصري الذي أقامة الفرنسيون في مصر بأنه لم يكن يستهدف تعليم المصريين وإنما دراسة أوضاع مصر دراسة علمية لكي يحسن الغزاة استعمارها، (بمعنى أدق يحسنون اعتصارها ونهبها)، ويتساءل مستنكرا: هل يمكن لدولة أن تحدث هذا التغيير وتُدخل دولة أخرى إلى العصر الحديث في ثلاث سنوات قضتها في حالة صراع مستمر مع الدولة المستعمرة[134]؟!

فمتى وكيف استطاع الجيش الفرنسي تلقين المصريين الحضارة الأوربية؟ والأمر كان كما وصف المؤرخ الفرنسي جان كلود فاتان Jean-Claude Vatin (1934-2021م) جيش نابليون في مصر: إن "هذا الجيش الذي لا يمكن أن تفخر به دولة. إنه جيش لا يحارب بقدر ما يغتصب، ويسلب وينهب ويحرق فلاحين عزلا، لا يجدون غير عصيهم ليصدوا بها مدافع الطغيان الجديد"[135]. والأدلة على صدق ذلك أكثر من أن تحصى؛ فعلى سبيل المثال عقب ثورة القاهرة الأولى ارتكب الفرنسيون فظائع بعد تسليم المدينة وإخلادها إلى السكينة أبعد ما تكون عن مقتضيات الحرب والقتال، ويعترف القواد الفرنسيون بالفظائع التي ارتكبت في قمع الثورة؛ وبتنكليهم بالثائرين في مذبحة رهيبة؛ وأرسل نابليون في 26 أكتوبر إلى الجنرال رينييه Reynier قومندان الشرقية يقول: عادت السكينة إلى القاهرة وفقد الثائرون نحو ألفي قتيل وفي كل ليلة نقطع رؤوس نحو 30 من الرجال وكثير من زعماء الأهالي، وأظن أن هذا سيكون درسا قاسيا لهم". بل إن النساء لم يسلمن من القتل والتنكيل، يقول بورين: "سيق المسجونون إلى القلعة وكنت أتولى في مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية بإعدام 12 سجينا كل ليلة، وكانت جثث القتلى توضع في زكائب وتغرق في النيل، واستمر ذلك عدة ليالي وكان كثير من النساء ممن نفذ فيهم أحكام الإعدام الليلية"[136]. ولم يقتصر على الأمر على قتل النساء بل تعدى ذلك - كما صرح شيخ الأزهر –آنذاك عبد الله الشرقاوي- بأنهم "هتكوا بعض الأعراض في مصر وقراها"، فضلا عن اقتحام الأزهر بخيولهم وتدنيسه،

---

[134]- أحمد زكريا الشلق: الشرق العربي مُستهدف دائماً، الخليج، 2001/7/9م. وراجع: أحمد زكريا الشلق: الحداثة والإمبريالية، دار الشروق، القاهرة، 2006م.

[135]- ليلى عنان: الحملة الفرنسية في محكمة التاريخ، ج2، المرجع السابق، ص ص50، 51.

[136]- الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج١، المرجع السابق، ص ص 290: 296.

وقتل بعض العلماء فيه[137]. وقارن بين ذلك وبين عطف بعض المصريين على بعض الفرنسيين وحمايتهم إبان الثورة على نحو ما سبق ذكره!

ومثال آخر؛ في أواخر شهر إبريل 1799م شبت في دمنهور ثورة واسعة، كانت الغلبة للفرنسيين في نهاية المطاف، يقول ريبو Ribot : "بعد أن احتل الجنود دمنهور قتلوا من صادفوه من رجال المهدي (قائد الثورة) جميعا...وأحرقوا مساكنها بالنار وقتلوا كل من وجدوه من الشيوخ والنساء والأطفال بحد السيف، وفي اليوم التالي كانت دمنهور ركاما من الأحجار السوداء اختلطت بها أشلاء الجثث ودماء القتلى". ويقول الجنرال لانوس Lanusse: "كانت مدينة دمنهور وأهلها هدفا للانتقام فقد أَمرتُ بتسليم المدينة لفظائع النهب وسفك الدماء، والآن لم يعد لدمنهور وجود، وقد قُتل من أهلها نحو 1200 أو 1500 ماتوا قتلا أو حرقا"[138]. وهو ما حدا بالمؤرخ الفرنسي جان جويل بريجون Jean-Joel Brégeon (1955- م) أن يصف ما فعله جيش بلاده في دمنهور بـ(الأورادور) Oradour، وهو اسم قرية فرنسية أحرق الجيش النازي كل أهلها في 1944/6/10م إبان الحرب العالمية الثانية، وأصبح اسمها رمزا للوحشية الألمانية والبربرية النازية، وتشبيه جيش نابليون في مصر بالجيش النازي جد خطير وجديد على الفرنسيين المهتمين بتاريخ الحملة[139]. وليس أدل على بشاعة ما اقترفه الفرنسيون في دمنهور من أنه غدا أنموذجا للتنكيل المفرط لدى نابليون نفسه يُخوّف به المصريين ويهددهم بتكراره؛ فحينما نهض لمواجهة الجيش العثماني في (أبوقير) في يوليو 1799م وبينما هو في الرحمانية أرسل إلى الديوان في القاهرة يطلب من أعضائه أن يُحَذِّروا الناس من عواقب الثورة متوعدا أي بلدة تثور بأن يحل بها العقاب الذي حل بدمنهور من الإحراق والتدمير[140]. ولعل في شهادات هؤلاء القادة والمؤرخين الفرنسيين عن وحشية الحملة ما يكفي لدحض مزاعم فشر بأن للحملة نتائج عظيمة ودائمة وأن نابليون أدخل في مصر نظم الحكم المتحضرة.

وكما قال هيرولد: إن تاريخ الحملات الاستعمارية قاطبة...إذا ما درس دراسة صحيحة ليس فيه ما يشرف الطرف (المتحضر) من طرفي الصراع...إن الجنود والمدنيين الفرنسيين الذين شاركوا في هذه الحملة على مصر كانوا خارجين لتوهم من ثورة هي أشد الثورات التي سجلها التاريخ وحشية[141].

الاستدراك الثاني: قضاء نابليون على سلطة المماليك الهمجية:

واستدراكنا على فشر ليس فيه أي دفاع عن هذا الجيل من المماليك، ولو أن نابليون قضى على تلك السلطة التي وصفها فشر بالهمجية وأقام مكانها سلطة متحضرة لما كان للباحث أي استدراك على فشر، ولكن وصفه سلطة المماليك بالهمجية والوحشية، -متغافلا أن نابليون وجيشه لا يقلان عن هذا الجيل من المماليك همجية ووحشية- في حاجة إلى مراجعة وإعادة نظر. وبالمقارنة تتصح الصورة وشهود الإثبات فرنسيون.

---

[137]- عبد الله الشرقاوي: تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلاطين، تحقيق: رحاب القاري، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996م، ص 122.

[138]- الرافعي: تاريخ الحركة القومية،ج2، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2000م.ص 55.

[139]- ليلى عنان: الحملة الفرنسية في محكمة التاريخ، ج2، المرجع السابق، ص 202.

[140]- الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج2، المرجع السابق، ص 72.

[141]- ج. كرستوفر هيرولد: المرجع السابق، ص9.

أولا: وقفة مع جيش الثورة الفرنسية وقد كانت حملة نابليون جزءا منه، لنرى كم كان حظه من التحضر وابتعاده عن الهمجية التي وصف فشر بها المماليك. من خلال استعراض ممارساته في فرنسا نفسها قبيل أن يقدم إلى مصر، يقول جوستاف فلوبير Gustave Flaubert(1821-1880م)، أحد أشهر كتاب فرنسا: "لقد قاسى المصريون الكثير من وحشية جند بونابرت وقسوتهم وتكبرهم، وهذا أمر طبيعي فهم جند مرحلة الإرهاب في فرنسا"[142]. وقد اعترف كثير من رجال الحملة أنفسهم أن عديدين من الأدنياء وأراذل الفرنسيين جاءوا مع جيش الشرق مقاتلين أو ملحقين بخدمة الجيش والإدارة[143].

يقول جوستاف لوبون: "أدى حب حكومة الثورة الفرنسية لسفك الدماء إلى قطع رؤوس شيوخ جاوزوا الثمانين عاما ورؤوس كثير من الأطفال والفتيات، وكثيرات منهن كن تجاوزن الثمانين عاما، بل "قُتل كثير من أصحاب القرائح السامية على يد أدنى الناس وأشدِهم غباوةً. ولم يكن قطع الرقاب الذي نشأ عن أحكام محاكم الثورة كل ما حدث أيام الهول الأكبر، فقد كان يصول ويجول في فرنسا جيوش ثورية مؤلفة من قطَّاع الطرق واللصوص ناهبة قاتلة؛ ففي بيدوان Bédoin (جنوب شرق فرنسا) مثلا قُتل العديد وطرد من بقي منهم؛ فاضطروا ليعيشوا على قطع الطرق في الجبال وإلى نحت الكهوف لتكون لهم بيوتًا[144]. وأرسلت لجنة الخلاص العامة[145]كارييه Carrer لعقاب (لافنديه)؛ فأقام محكمة ثورية تحت رئاسته ولكنه، استبطأ المقصلة كأداة للعقاب الجماعي؛ فأغرق المقبوض عليهم بالجملة أفواجا في نانت Nantes (على نهر لوار غرب فرنسا)، وبلغ عدد من أهلكهم غرقا خلال ثلاثة أشهر (أكتوبر ونوفمبر وديسمبر 1793م) ما لا يقل عن خمس عشرة ألف نسمة[146]، وكان يئد ضحاياه بعد أن يفقأ عيونهم ويذيقهم أشد العذاب. وكان يُكره ضحاياه على حفر قبورهم ليدفنهم فيها أحياء، وكان يشعر بلذة عظيمة عندما يشاهد ضحاياه يتوجعون؛ حيث قال: "إنني لم أضحك في المديريات التي طارت فيها رؤوس رجال الإكليروس ضحكي عندما كنت أرى تَقَبُّض وجوه هؤلاء عند موتهم"! وقال شاهد عيان في شهادته سنة1794م: "شاهدت بعد الاستيلاء على نوار موتيارNawar Mutier (جنوب شرق فرنسا)، رجالًا ونساء وشيوخًا يُحرقون أحياء، وشاهدت نساء وبنات يقل عمرُهن عن خمس عشرة سنة يقتلن بعد انتهاك أعراضهن، وشاهدت أولادًا يبقرون بالحراب ويطرحون على الألواح بجانب أمهاتهم". وكانت (لجنة السلامة العامة) هي التي تحرض كارييه وغيره على اقتراف المظالم، وثبت أن ما حدث من ضروب الاضطهاد نشأ عن خطة حكومية مدبرة لا عن مساع شخصية. وبلغ القتل في طولون Toulon (جنوب فرنسا) مبلغًا أصبح به عدد سكانها سبعةً آلاف في بضعة أشهر بعد أن كان تسعة وعشرين ألفًا. وتلقى رُبّان سفينة أمرًا بأن يحمل عليها إحدى وأربعين ضحية "منها ضرير بلغ الثامنة والسبعين من عمره، واثنتا عشرة امرأة، واثنتا عشرة بنتًا، وخمسة عشر صبيًّا، وخمسة أطفال- ويغرقهم"[147]!

ومن أكثر ما يثير الدهشة لدرجة تكاد تعقد اللسان؛ فيعجز عن البيان، ما حدث للأمة الفرنسية إبّان الثورة الفرنسية التي انطلقت جيوشها هنا وهناك لنشر مبادئ الحرية والإخاء

---

[142]- ليلى عنان: الحملة الفرنسية في محكمة التاريخ، ج2، المرجع السابق، ص ص51،50.

[143]- محمد فؤاد شكري: المرجع السابق، ص 554.

[144]- جوستاف لوبون: المرجع السابق، ص ص88، 145، 146.

[145]- بالفرنسية: Comité de salut public، وتترجم أيضا بـ(لجنة الأمن العام) أو (لجنة السلامة العامة) وهي حكومة من وزارة قليلة العدد تألفت في إبريل 1793 في فرنسا خلال عهد الإرهاب (1793-1794م)، وهو أحد مراحل الثورة الفرنسية. فشر: تاريخ أوربا الحديث، المرجع السابق، ص ص 38-40.

[146]- محمد فؤاد شكري: الصراع بين البرجوازية والإقطاع، ج1، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط2، 2008، ص ص 319، 320.

[147]- جوستاف لوبون: المرجع السابق، ص ص90، 147، 148.

والمساواة المزعومة، ما ذكره جوستاف لوبون حين قال: "كانت الأمهات يَقُدْنَ أولادهن ليشاهدوا قصل الرؤوس كما يَقُدْنَهم اليوم إلى دور الألعاب"! مفسرا ذلك بقوله: "إن العادة أرهقت الحواس فلم ينتبه الناس كثيرًا إلى ما كان يقع[148]؛ فهل وصل المماليك إلى هذا الدرك من الهمجية؛ فجعلت فشر يبصر همجيتهم ولا يرى همجية نابليون وجيشه؟!

ولم يتوقف التخريب حينذاك على قتل النفوس فقط، بل تناولت معاولُ الهدم الآثار أيضًا، فقام زعماء الثورة الفرنسية بالاعتداء على المباني والآثار الفنية، التي عدُّوها بقايا ماض مقيت؛ فكسرت التماثيل والنقوش البارزة وزجاج النوافذ والتحف الفاخرة، وعندما أرسلت حكومة العهد فوشيه Foucher (الذي نال في عهد نابليون لقب دوق وصار وزيرًا في عهد لويس الثامن عشر 1814–1824م)، لينوب عنها في نيافر Nièvre (في وسط فرنسا)، أمر بهدم أبراج قصورها ونواقيس كنائسها، وقد تناولت يد الهدم قبور الملوك الفخمة، ومنها قبر هنري الثاني (1547–1559م) البديع. ويعقب لوبون قائلا: إن رِضَى أرباب العقول النيرة عن تخريب ميراث فرنسا الفنيّ أمر محزن، وهذا يدلنا على ما يؤول إليه أمر المطلَقين من الزواجر الاجتماعية[149]. وهذا غيض من فيض مما اقترفه جيش الثورة في فرنسا نفسها؛ فماذا يتوقع من أمثال هؤلاء أن يفعلوا في مصر إذا كان فعلهم في مواطنيهم؟

ثانيا- ممارسات جيش الحملة في مصر: من أمثلة تلك الممارسات؛ يقول فرنسوا برنوابيه: أحرق البدو في قرية موظفا فرنسيا؛ فأمر نابليون بإحراق القرية وذبح كل سكانها أو إطلاق النار عليهم[150]. فمن الهمجي هنا؟ الذي يرد على حرق فرد واحد بإحراق بلدة وقتل كل سكانها؟! والشهادة بذلك من الفرنسيين أنفسهم!

ويقول فرانسوا برنوابيه أيضا: "كان المماليك يحكمون بسيطرة كاملة على الأقاليم؛ فكانوا يجبون الضرائب ويختلقون أنواع الإهانات ضد الفلاحين...وما كان يحزننا هو أن بونابرت يستعمل نفس وسائل المماليك مع الأسف الشديد. ويقول دينون الذي رافق الجنرال ديزيه في حملته على مراد بك في الصعيد: "ذهبنا مع فرقة مكونة من ثلاثمائة رجل لنحصل الميري[151]، أو ضريبة الأرض، ومصادرة الخيل والجاموس، كنا في ذلك نتبع وسائل المماليك الذين يقومون بالرحلة العسكرية نفسها في المقاطعات التي ولوا عليها، وهم يعسكرون أمام المدن والقرى، ويأكلون على نفقة أهلها إلى أن يدفع لهم ما جاءوا في طلبه. كانوا يقولون عنا إننا "آفة من عند الله" أرسلها عليهم ليعاقبهم على خطاياهم، وفي الحقيقة، كان يجدر بهم أن يطلقوا علينا اسما أكثر عنفا". ثم يصف دينون كيف "كانت الأمهات يشوهن بناتهن حتى لا تغتصبن"...وكنا نقترف كل يوم و"بصورة اضطرارية" عددا كبيرا من المظالم...ونقتل يوميا فلاحين أبرياء[152].

ثالثا- هل غفل فشر أو تغافل أن الفرنسيين -الذين زعموا أنهم أتوا ليخلصوا المصريين من ظلم المماليك- انتهوا إلى التحالف مع المماليك ضد المصريين بل وتعاون الفريقان -الفرنسيون والمماليك- على قمع المصريين وقهرهم والتنكيل بهم؟!

148- نفسه، 145.

149- نفسه، ص ص،148، 149.

150- ليلى عنان: الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة، المرجع السابق، ص 36.

151- الميري: ضريبة مخصصة لخزانة الدولة. أرض الميري يقصد بها فئة الأراضي التي تعود إراداتها إلى الدولة. هيلين آن ريفلين: الاقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن 19 ترجمة: أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسيني، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2016، ص 433.

152- ليلى عنان: الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة، المرجع السابق، ص ص 42-68.

ففي 5 إبريل 1800م وقع كليبر معاهدة مع مراد بك اعترف له بصفته أميرا حاكما على الصعيد مقابل دفع الميري المقرر، وعقب عقد هذه المعاهدة الفرنسية المملوكية قدم مراد الدعم للفرنسيين في قمع وإخماد ثورة القاهرة الثانية التي كانت مشتعلة الأوار منذ 20 مارس 1800م؛ فقدم لهم المؤن والذخائر، وأرسل لهم عدداً من المراكب المحملة بالحطب والمواد الملتهبة لإشعال الحرائق في القاهرة، فتمكن الفرنسيون من إخماد الثورة بفضل الحرائق التي أشعلوها في الأحياء الوطنية، وفي حي بولاق على وجه الخصوص، وسلطوا عليه نيران مدافعهم حتى خربوه تخريبا في 15 إبريل. وفي نهاية المطاف أثنى الفرنسيون على عودة المماليك للحكم باعتبار أنهم سادة البلد السابقون[153]؛ فمن أحق بوصف الهمجية المماليك أم الفرنسيون؟!

المراجعة الخامسة: عودة مصر لحضن أوربا!

يقول فشر:

His expedition restored a long lost province to European civilization [154]

الترجمة: أعادت حملته [نابليون] إلى أحضان الحضارة الأوربية قطرا كان قد مكث بعيدا منها أزمنة طويلة[155]. وبتعبير آخر: أعادت حملته إلى الحضارة الأوروبية ولاية مفقودة منذ زمن طويل! ويقول في موضع آخر:

It was Napoleon who had recovered Egypt for Europe[156].

الترجمة: كان نابليون هو الذي استعاد مصر لأوربا.

يرى فشر أن مصر -صاحبة التاريخ والحضارة- مكانها الطبيعي؛ حضن أوربا وكنفها! وفشر برأيه هذا يسير في التيار نفسه الذي سار فيه كثير من الكتّاب الفرنسيين الذين يعتقدون أن مصر التي كانت جزءا من الإمبراطورية الرومانية وأنه يجب أن تصبح تابعا للجمهورية الفرنسية، ولكنهم كانوا يعتقدون أن مصر عاشت في انحطاط على أثر الغزو الروماني ولبثت فيه أحقابا، أما فرنسا فسيكون غزوها لمصر فترة ازدهار ورخاء[157]. فلقد كان يستحوذ على المثقفين من الثوار الفرنسيين "فكرة روما وسيطرة نمط التاريخ الروماني"، وقد كانوا هم أصحاب الصوت العالي، وكان لزاما على كل سياسي أن يذكر أن فرنسا هي روما الجديدة[158]. وفشر يردد المعني نفسه الذي يتكرر في كتابات غربية تدعي أن "وصول حملة نابليون إلى مصر يعد أعظم حدث في تاريخ مصر الحديث". مشيدين بما اصطحبه نابليون

153- محمد فؤاد شكري:الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص ص209:211. وهنري لورنس:الحملة الفرنسية على مصر، المرجع السابق، ص488. وأندريه ريمون: المرجع السابق، ص332.

154- Fisher, H: A History of Europe, op. cit,p. 826.

155- هربرت فشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث، المرجع السابق، ص53.

156- Fisher, H: A History of Europe, op. cit., p. 1069.

157- Laurens, H. : L'Expédition d'Egypte, 1798-1801,Armand Colin, Parism, 1989, p.28

158- ليلى عنان: الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير، المرجع السابق، ص 88.

معه من علماء في مجالات علمية شتى[159]. وكانت هذه الأفكار جلية في كتابات فلاسفة التنوير وبعض الرحالة والقناصل في القرن الثامن عشر، وفي صحف الحملة (كورييه دى ليجيبت) و(لاديكاد يجيسيين)، التي كانت تشيد بالحضارة الفرعونية، وتُعد "الإسلام" عقبة في مسيرة التقدم؛ وأن إعادة الازدهار لمصر ووصل حاضرها بماضيها التليد مشروط بتدخل أوربي يكون بمثابة سفينة نجاة لإنقادها من وهدة التخلف والتوحش والهمجية السحيقة التي تتردى فيها منذ اثني عشر قرنا؛ فكان هذا تبريرا قويا لاحتلال فرنسا لمصر[160].

ومن ثم يبدو جليا أن فشر يتماهي مع هذه النظرة التي يمكن أن يطلق عليها "نظرة تاريخية أوربية المحور" وهي رؤية تنطوي على مفهوم أن العالم (الثالث) كان في سبات عميق حتى مجيء الغرب، وهذه النظرة خاطئة تماما، وتحداها بيتر جران وبرهن على أن مجيء نابليون إلى مصر عام 1798م لم يكن ذا أهمية كبيرة في التاريخ المصري، كما تزعم حركة التأريخ الأوربية (وفشر جزء منها) منذ وقت طويل وخَلُص إلى أن التركيز على عام 1798م هو جزء من التاريخ الكلونيالي[161] الذي لم يمت بعد". وعالج بيتر جران في كتابه (الجذور الإسلامية للرأسمالية) الحركة الفكرية في مصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي شهدت صحوة في مختلف مجالات البحث في المعاهد الإسلامية وخاصة الأزهر في ميداني العلوم العقلية والنقلية على السواء، ويتخذ بيتر جران من أعمال الشيخ حسن العطار (غدا شيخا للأزهر سنة 1830 حتى وفاته1835م) مؤشرا لتلك الصحوة. وينتقد (جران) فكرة إرجاع نشأة مصر الحديثة إلى الحملة الفرنسية. ودعا كُتّاب تاريخ مصر إلى التخلي عن عام 1798م (عام مجئ الحملة الفرنسية) كبداية للتحديث في مصر، لأن مصر كانت تتمتع بثقافة حية قبل حملة بونابرت، وأنه كان من الممكن أن تنجز عملية التحديث بنفسها[162].

وثمة سؤال يطرح نفسه، ما الفرق بين فشر المؤرخ الوزير البريطاني، وتاليران[163] Talleyrand (1754-1838م). وزير الخارجية الفرنسي؛ إذ إن فشر يطرح الرؤية التي نراها ماثلة في التقرير الذي قدمه تاليران، إلى حكومة الديركتوار في 14 فبراير سنة 1798م عن مشروع الحملة وهو تقرير مطول بحث فيه علاقات فرنسا بمصر والأسباب التي تبرر الحملة الفرنسية في نظره، بدأه بقوله: "كانت مصر فيما مضى ولاية من ولايات الجمهورية الرومانية، ومصر الآن يجب أن تكون ولاية تابعة للجمهورية الفرنسية"[164]! هذا تطابق مدهش يثير الانتباه بين رؤية الوزيرين:

159- Newby, P.H. : The Egypt Story: Its Art, Its Monuments, Its History, American University in Cairo Pre, 1986 .p. 213.

160- ناصر إبراهيم: شهادة تاريخية مؤجلة لأحد ضباط الحملة الفرنسية، الحملة الفرنسية على مصر، مراجعة وإشراف مديحة دوس، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2005، ص 67.

160- نفسه، ص ص 2،3.

161- كلونيالي: (بالإنجليزية: Colonialism) تطلق على السيطرة والتأثير الذي تفرضه الدولة المستعمرة على الكيان التابع لها، والنظام أو السياسة التي تنهجها للحفاظ على السيطرة وتأتي مرادفا للإمبريالية.

162- بيتر جران: المرجع السابق، ص ص5، 6.

163- تاليران: ينحدر من أسرة فرنسية عريقة، اشتغل بالسياسة إبان الثورة الفرنسية، إلا أن عنف الزعماء اضطره إلى الهجرة؛ فظل بعيدا عن فرنسا حتى سقوط روبسبيير، ثم جاء باريس وتقلب في حياتها السياسية الصاخبة، ولم يلبث أن عُين وزيرا للخارجية عام 1795م وبقي في منصبه حتى سنة 1807م حين بدأ يعمل سرا ضد الإمبراطور نابليون، ولذلك عزل، وظل تاليران في عزلة عدة سنين، ولما سقط نابليون أعلن تاليران انضمامه إلى الملكية الجديدة، وظل من كبار الساسة في فرنسا مدة طويلة، وهو مشهود له بالبراعة في السياسة، غير أنه كان لا يثبت على مبدأ. فشر: نابليون، المرجع السابق، ص130.

164- الرافعي: تاريخ الحركة القومية،ج1، المرجع السابق، ص 155.

البريطاني (فشر) والفرنسي (تاليران) اللذين من المفترض أن بين دوليتهما صراعا دمويا محموما لتناقض الرؤى والمصالح! فضلا عن الفارق الزمني الذي يتجاوز 130 عاما حين طرح تاليران رؤيته في عام 1798م، وبين تبني فشر تلك الرؤية في كتابه الذي بدأ تأليفه في 1930 كما سبق ذكره!

والدعوة إلى إعادة مصر إلى حضن الحضارة الأوربية من تاليران، ثم الادعاء من فشر بأن حملة نابليون فعلت ذلك، فيها استعلاء وعنصرية على أساس أن أوربا محور العالم، وأنه ينبغي أن يكون الجميع في فلكها يسبحون! وكأن بلدا بتاريخ مصر وحضارتها العريقة كانت مسخا دون هوية ولا عظيم تراث.

ولكن كيف يقول فشر إن حملة نابليون أعادت مصر إلى أوربا رغم أنها فشلت وغادرت مصر بعد ثلاث سنوات؟! وهذا التماهي اللافت بين رؤية فشر مع الرؤى الفرنسية الشوفينية على نحو نأى بأنفسهم عنه كثير من المؤرخين الفرنسيين على نحو ما سبق، حتى إن القارئ يكاد ينسى أحيانا أن فشر كان إنجليزيا!

ولكن كيف يمكن فهم هذا وتفسيره؟ يمكن تفسيره بالآتي: أن فشر رغم كونه إنجليزيا قحا فإنه كان يرى في حملة فرنسا على مصر أنموذجا أوربيا رغم أنه تجلى في ثوب فرنسي؛ فلا غضاضة لديه في هذا، وأنه من أولئك الذين كانوا يرون أن نابليون كان يحمل "رأس قيصر على كتفي الإسكندر"، وبما أن مصر لا يمكن النظر إليها على أنها متوحشة كما في شعوب أمريكا، بل إنها تنتمي إلى أمة تم الاعتراف سلفا بثقافتها وحضارتها، وبما أن روح الحروب الصليبية قد ولّت؛ فمن الضروري العثور على أيديولوجية جديدة تساعد على تبرير الغزو والحط من قيمة المنجز الثقافي والحضاري لهذه المجتمعات الشرقية الإسلامية، وهذه الأيديولوجية التي ستصبح مهيمنة وستحل محل المسيحية على المسرح السياسي هي "أيديولوجية التنوير"[165]. ولهذا فإن هنري لورنس يرى أن الحملة الفرنسية على مصر لا ترجع إلى أسباب سياسية واستراتيجية. وإنما هي اختبار أَوّلِيٌ لروح استعمارية جديدة لا تهدف إلى مجرد الاستغلال الاقتصادي، وإنما إلى تغريب معمم لبقية العالم"[166].

والراجح أن معالجة فشر لحملة بونابرت على مصر تتبنى تلك الرؤى بجلاء. وكأن فشر بمثل هذه المعالجة يقدم تبريرا فلسفيا زائفا لاحتلال بلاده بلدانا كثيرة كمصر طالما أنه من الطبيعي أن تعود مصر إلى أحضان أوربا بعد غياب قرون؛ إذن فالمهم لديهم أن تعود مصر إلى أوربا بغض النظر عمن سيعيدها؛ فإذا كانت فرنسا فشلت في حملتها على مصر وأخفقت في فعل ذلك؛ فلتفعل ذلك إنجلترا ولتنجح هي فيه، بدعاوي تمدين تلك البلاد المتخلفة، و(رفع راية التنوير) هي المبرر المزعوم، ولعل هذا يفسر قوله: إن الحملة الفرنسية أعادت مصر لأوربا، رغم أن فرنسا لم تُعِد مصر لأوربا؛ ومن ثم فإنه يعد أن إنجلترا أكلمت ما بدأته فرنسا في مسعى أوربا (النبيل) بإعادة مصر إلى أحضان أوربا!

والمعلوم أن إنجلترا ما فتئت منذ جلاء الحملة الفرنسية عن مصر تسعي لاحتلالها؛ فأخفقت حينا[167] ثم نجحت عقب الثورة العرابية. ومن ثم فلا غرو إذن أن فشر حين أرخ لاحتلال بلاده لمصر عام 1882م؛ قد رأى في احتلال بريطانيا لمصر كأنه تضحية من قبلها،

165- هنري لورنس: الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر، ترجمة بشير السباعي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2015، ص ص 183، 184.

166- نفسه، ص 186.

167- مكثت إنجلترا عامين في مصر بعد جلاء الحملة، ثم حملة فريزر1807م، ثم حاولت احتلال مصر عام 1840م، ونجحت في 1882م. راجع عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج3،عصر محمد على، المرجع السابق، ص6.

وأن فرنسا تركتها "تضطلع بإخماد ثورة عرابي وحدها"! و"تقوم بإصلاح الأداة المالية والإدارية المصرية". ثم يصف فشر اللورد كرومر بأنه شرع في القيام "بعمله العظيم من الإصلاح الإداري الذي أعاد لمصر رخاءها"[168]! هكذا؛ يرى فشر أن بلاده قدمت لمصر خدمة وتحملت عبئًا لم تشاركها فرنسا فيه، وهو إخماد ثورة عرابي وإصلاح الأحوال المالية والإدارية، تلك المهمة العظيمة التي نهض بها كرومر فأعاد لمصر رخاءها!

المراجعة السادسة:نشر نابليون الحرية ونموذج الحكم المتحضر

يقول فشر:

the Odyssey of the marvellous foreigner continued to inspire hopes of liberty and to furnish a pattern of civilized and ordered rule[169]

الترجمة: استمرت "أوديسة" هذا الأجنبي تبعث آمال الحرية في النفوس، وتقدم مثالا يحتذى للحكم الممدن المنظم"[170]. وبصياغة أخرى: استمرت أوديسة هذا الأجنبي الرائع في نشر آمال الحرية وتقديم نموذج من الحكم المتحضر والمنظم.

يرى فشر أن أسطورة بونابرت ظلت تبعث آمال الحرية في النفوس وتقدم مثالا يحتذى للحكم المتمدين؛ وهذا كلام مرسل يفتقر إلى الدليل؛ فماذا عن نشره الحرية والحكم المتحضر في فرنسا نفسها؟

بعد شهر واحد من رجوع نابليون من مصر إلى فرنسا؛ استولى على الحكم في انقلاب عسكري سلمه السلطة المطلقة، وقمع كل الحريات، وأزال ما اكتسبه الفرنسيون من الثورة، وألغى مبدأ الانتخاب، وأغلق الصحف، وأصبحت حكومة فرنسا، وقضاؤها وفكرها فى قبضته وحده، وأصبح حكمه دكتاتورية فردية مستبدة مطلقة، واستمر في سياسته تلك إلى أن أوصل فرنسا إلى الخراب في 1815م[171].

فهو إذن لم يُطبق مبادئ الحرية في بلاده نفسها، ولم يُطق أن ينتقده أحد حتى لو كان امرأة، وما موقفه من مدام دي ستايل Madame de Stael ببعيد!

كانت مدام دى ستايل ابنة جاك نكير Jacques Necker (وزير المالية الشهير فى فرنسا قبيل الثورة)، وقد نشأت فى العز، وأعجب رواد صالون أبيها بذكائها وهي في سن الحادية عشرة، وبدأت تشتغل بالأدب والكتابة وهى بنت يافعة، وتزوجت سنة 1786م من البارون ستايل، سفير السويد فى باريس فيما بعد. وعاشت مدام دى ستايل سيدة صالونات باريس حتى قامت الثورة، وتطرف زعماؤها، فهاجرت مع من هاجر إلى إنجلترا، ثم عادت إلى فرنسا عام 1795م، واشتغلت بالسياسة والأدب. لكن حكومة الإدارة لم ترض عن مبادئها، فهاجرت من فرنسا مرة أخرى، ثم رجعت إليها عام 1797م؛ حين كان نجم نابليون في صعود. غير أن نابليون لم يعجبها، فلم تحدث بينهما صداقة أو مودة، وانقلب تعارفهما كراهية اضطرت معها إلى ترك فرنسا مرة ثالثة. ثم رجعت مدام دى ستايل إلى فرنسا سنة 1802م، فأصبح صالونها بسرعة مجمع الكارهين لنابليون والساخرين منه، وظل كذلك حتى

168- هربرت فشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث، المرجع السابق، ص 541.

169- Fisher, H: A History of Europe, op. cit, p. 826.

170- هربرت فشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث، المرجع السابق، ص53.

171- ليلى عنان: الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة، المرجع السابق، ص20.

نفد صبر الإمبراطور سنة 1804م. عند ذلك بدأ نابليون يضطهدها، ولا شك أنه "صَغَّر من شأن نفسه باستمراره على ذلك"؛ إذ طردها من فرنسا، وصادر أحد كتبها. ولما سقط نابليون رجعت مدام دى ستايل إلى باريس ولقيت كل حفاوة من لويس الثامن عشر Louis XVIII (1814-1824م). غير أنها اضطرت إلى الهرب حين رجع نابليون من (إلبا). ولم ترجع إلى فرنسا بعد ذهاب نابليون وإمبراطوريته، بل ماتت فى إيطاليا سنة 1817م[172]. وهذا فقط مجرد مثال لما كان يفعله نابليون على أرض الواقع مع امرأة لا تملك إلا قلما ولسانا؛ فتم قمع حريتها على هذا النحو!

واللافت في هذا الصدد أن بونابرت خلق مناخا من الرهبة والخوف لم يقتصر على معارضيه فقط، بل أرهب مؤيديه أيضا؛ لدرجة أن بعض المؤمنين بـ(عظمة) نابليون شرعوا في كتابة مذكراتهم عن حملة مصر ونشرها، لكنهم أحجموا بعد أن رأوا ما حدث مع الجنرال رينيه Reynier الذي نشر مذكراته عن الحملة[173]؛ فأصدر بونابرت قرارا بحظر تداولها، ومصادرة معظم النسخ في المكتبات، وحين صدرت مذكرات ذاك الجندي بسيط الذي يدعى ميو Miot غضب بونابرت بشدة لما ورد فيها من حقائق عن معاناة الجنود؛ فلم يكتفي بونابرت بسحب الكتاب من دور النشر، بل شكل لجنة لمراجعة أي كتاب قبل نشره، وزادت الرقابة مع توطد حكم نابليون وزادت العقوبات -بدءا بالغرامات المالية مرورا بالاعتقال والسجن ومصادرة الممتلكات- على المؤلفين الذين يكتبون ما يمس شخص الإمبراطور، وأفسح المجال فقط لمن يمجده من الكتاب والفنانين. ودعم هيمنته الشديدة؛ التهديد بالزج في غياهب السجون لكل من عارض توجهات وتوجيهات السلطة وتعميم هذه العقوبة على الناشرين كذلك[174]! وإذا كان فاقد الشيء لا يعطيه؛ فهل يمكن قبول زعم فشر أن نابليون كان مؤهلا لإعطاء العالم دروسا في الحرية؟!

أما فيما يخص مصر؛ فيبدو بجلاء أن فشر يتبني مزاعم نابليون واداعاءاته التي كررها في كثير من منشوراته ففي أحدها[175] يخاطب المصريين قائلا: إن الله [سبحانه وتعالي] "حكم بحضوري إلى مصر لأجل تغييري الأمور الفاسدة وأنواع المظالم، وتبديل ذلك بالعدل والراحة مع صلاح الحكم"[176]؛ والمثير أن نابليون نفسه اعترف -كما سبق الذكر- بأن منشوره الذي وزعه لدى وصوله مصر كان "قطعة من الدجل"، وهو ما ينسحب على كثير من منشوراته، بينما فشر ينسب لنابليون مآثر كذَّبها نابليون نفسه بالقول والفعل والممارسة.

وهكذا؛ يكرر فشر التماهي مع ادعاءات كثيرة أُطلقت عن تأثير الحملة في نفوس المصريين، ولكن شهود العيان، ومنهم فرنسيون يكذبون كثيرا من تلك المزاعم؛ فعلى سبيل المثال:

حينما أقام نابليون احتفالا عسكريا مهيبا بعيد الجمهورية الفرنسية الأولى في 22 سبتمبر 1799م، بميدان الأزبكية ودعا إليه العظماء والقاضي وأعضاء الديوان..إلخ، وأبدع الفنانون الفرنسيون في تنسيق هذا الاحتفال، ونصبوا في وسط الميدان سارية عظيمة سموها "شجرة الحرية"، وأُضيئ ميدان الأزبكية ليلا بالأنوار، واستمرت الموسيقى تصدح إلى ما بعد منتصف الليل. وعلى الرغم مما بذله الفرنسيون ليجعلوا احتفالهم حافلا بمظاهر السرور

---

[172]- هربرت فشر: نابليون، المرجع السابق، ص ص 2،3.

[173]- يعد كتاب رينييه من أهم وثائق الحملة الفرنسية، وقد مات سنة 1804م وأعيد طبع الكتاب سنة 1827م باسم مذكرات رينييه Memoires de Reynier. الرافعي: تاريخ الحركة القومية،ج1، المرجع السابق، ص 445.

[174]- ناصر إبراهيم: المرجع السابق، ص ص 54-56.

[175]- نفسه، ص ص 2،3.

[176]- الجبرتي: المصدر السابق، ج4، ص280. وأورد نقولا الترك هذا المنشور الذي حرره نابليون في الرحمانية في 17 صفر 1214هـ الموافق 22 يوليو 1799م، وذلك قبيل اشتباكه مع العثمانيين في موقعة أبي قير البرية. نقولا الترك: مذكرات نقولا الترك، تحقيق عبد العزيز جمال الدين، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2015، ص73.

والبهجة؛ فإن نفوس الأهالي كانت منقبضة عن تلك المظاهر[177]. ومن أبلغ ما يعبر عن نفسية المصريين التي كانت عازفة عن هذه الحفلات بل نافرة منها ما قاله نقولا الترك (1763-1828م) الذي كان شاهد عيان على الاحتفال: "صنعت الفرنساوية عيدا عظيما للمشيخة (يقصد الجمهورية الفرنسية)...واصطنعوا عامودا طويلا مرصعا وغرسوه في البركة...وكانوا يقولون: إن هذه شجرة الحرية، وأما أهالي مصر كانوا يقولون: إن هذه إشارة الخازوق الذي أدخلوه فينا واستيلائهم على مملكتنا". ثم يشير نقولا الترك إلى أن هذا العمود ظل منصوبا نحو 10 أشهر "وحينما رفعوه استبشرت أهل مصر وابتهجت بالفرح"[178]! هكذا رأى المصريون الراية التي جعلها الفرنسيون رمزا للحرية التي يُخادعون بها المصريين، بيد أنهم لم ينخدعوا. فأين هذا من قول فشر إن نابليون نشر آمال الحرية في النفوس؟! ها هي ذي نفوس المصريين مشمأزة.

ويعلق شاهد عيان آخر على هذا الحدث وهو ديجنت Dessgenttes (1762-1837م) كبير أطباء الجيش الفرنسي في مذكراته؛ فكتب يقول: "لقد تكلموا كثيرا في أوربا عن حفلات أول فنديمير[179] (عيد الجمهورية الفرنسية) وتأثيرها في نفوس المصريين، على أن كاتب هذه المذكرات يؤكد أنها لم يكن لها أثر ما في سكان القاهرة بالرغم من مظاهر الفخامة التي أحيطت بها"[180]. فهذا نقولا الترك وديجنيت ينفيان مزاعم فشر من أن حملة نابليون بعثت آمال الحرية في النفوس، بل ويؤكدان العكس وهو نفور المصريين من نابليون وحملته وممارساته.

والسؤال الذي يطرح نفسه، مَن هذا ومَن هؤلاء الذين بعثوا آمال الحرية وقدموا مثالا يحتذي للحكم الممدن ومتى؟ أهؤلاء الذي سفكوا دماء قومهم بكل قسوة ووحشية قبل قدومهم إلى مصر؟ وحين أتوا إليها سفكوا دم المصريين أيضا بكل قسوة ووحشية؟ فعن أي حرية يتحدث فشر؟ ومتى قدم نابليون مثالا للحكم المتحضر؟

لقد قدمت الحملة إلى مصر إبّان تولي حكومة الإدارة السلطة في فرنسا وكان التدهور الخلقي من العوامل التى زادت من حدة الصعوبات التي واجهتها تلك الحكومة؛ فقد انتشر وتغلغل الفساد والرشوة فى كل فرع من فروع الإدارة. وفى الجيش صارت الخدمة (كضباط أو جنرالات) وسيلة سهلة للإثراء الفاحش والسريع على حساب أغذية الجند وملابسهم، حتى صار هؤلاء يعيشون في مسغبة، ويكادون يسيرون وهم عرايا؛ حتى غدا أى قائد قادرا على أن يظفر بولائهم وإخلاصهم، إذا لم يكن مرتشياً، وإذا قادهم - كما فعل بونابرت- إلى نصر. وانتشر الانحلال الخلقي في الحياة الاجتماعية، وشهدت باريس حياة ترف وبذخ ولهو ومجون ومغامرة ومضاربة، لم يسبق لها مثيل؛ وتزيا النساء بأزياء فاضحة، وكثرت حوادث الطلاق[181]. ولعل فيما نقل عن (ماليه دي بان) -أحد المعاصرين قوله: "إن أحدا من الناس لا يفكر في شيء سوى متعته ومشربه ومأكله"- ما يشير إلى ما ساد ربوع فرنسا من انحلال

177- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج1، المرجع السابق، ص263.
178- نقولا الترك: ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والممالك الشامية، موسسة هنداوي، القاهرة، 2012م، ص38.
179- بدأ التقويم الجمهورى بأول فانديمير من السنة الأولى الموافق 22 سبتمبر سنة 1792م غداة اليوم الذي قرر فيه المؤتمر الوطني أو الجمعية الوطنية إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية في فرنسا. وبدأت الثورة الفرنسية تستخدم تقويما للجمهورية؛ ليحل محل التقويم الجريجوري. محمد فؤاد شكري: الصراع بين البورجوازية والإقطاع، المرجع السابق، 279. وفشر: نابليون، المرجع السابق، ص ص21،22.
180- عبد الرحمن الرافعي: المرجع السابق، ج1، ص264.
181- محمد فؤاد شكري: الصراع بين البورجوازية والإقطاع،ج1، المرجع السابق، ص350.

خلقي[182]؛ فهل بإمكان حملة خرجت من مجتمع يضج بهذه الفوضى العارمة والفساد والانحلال أن تنشر لواء الحرية والتحضر؟!

إن حملة بونابرت على مصر امتهنت الأديان، وازدرت التقاليد، واستخفت بحقوق الإنسان[183]. وجوبهت بمقاومة منتشرة في ربوع البلاد؛ فكان رد فعل الفرنسيين كما يصف أندريه ريمون «ولكي يتغلب الفرنسيون على الصعوبات التي واجهوها منذ البداية وجدوا أنفسهم مدفوعين إلى اللجوء إلى القمع، وأدت دورة العنف التي نتجت عن ذلك إلى تحميل السكان مكابدات معنوية ومادية وإلى وقوع دمار غالبا ما جرى التقليل من جسامته"[184]؛ وفشر ليس من أولئك الذين يقللون من الدمار الجسيم الذي أوقعته حملة بونابرت؛ بل إنه لم يأت على ذكره مطلقا، في الوقت نفسه يعترف به أندريه ريمون وهو مؤرخ فرنسي لا يُرمى بالتحامل على بلاده؛ فعن أي حرية وحكم متحضر يتحدث فشر؟

إن نابليون نفسه لم يكن يميل بطبعه إلى النظم الديمقراطية، وحينما أنشأ الديوان العمومي في مصر لم يكن هذا نوعا من الديمقراطية أو الشورى، وإنما ليتعرف من خلاله على عادات ومعتقدات المصريين؛ لكيلا تصطدم بها قوانينه فيثير غضبهم[185].

ومن الأهمية بمكان -في معرض الاستدراك على فشر في زعمه أن حملة نابليون أدخلت الحكم المتمدين إلى مصر -الإشارة إلى أن المصريين قاموا بثورة وصفت بأنها دستورية في عام 1805م، لم يكن لنابليون وحملته أي تأثير فكري على القائمين بها، يبدو هذا بجلاء من أحداث تلك الثورة، فلقد ذهب الزعماء إلى محمد على في داره وكان مما قالوه له: "لا نرضى إلا بك وتكون واليا علينا بشروطنا"[186]. وفي موضع آخر يروي الجبرتي قولهم له: "اخترناك لذلك برأي الجميع والكافة والعبرة رضا أهل البلاد"[187]! وكانت هذه أول مرة يقرر فيها زعماء الشعب مبدأ دستوريا مهما، وهو حق الأمة في تعيين من يحكمها[188]. ليس هذا فحسب بل إن ولاية "محمد علي" بهذه الطريقة لم تكن مجرد انتخاب شعب لمن يحكمه فقط، بل كان الأمر مقروناً باشتراط أن يرجع "محمد علي" لزعماء الشعب في جميع شؤون الدولة، وهذا يتسق مع فكرة الحكم الدستوري؛ إذ كان الأمر كما قال الجبرتي: "تم له الأمر بعد المعاهدة والمعاقدة..على سيره بالعدل وإقامة الأحكام والشرائع والإقلاع عن المظالم وألا يفعل أمراً إلا بمشورة العلماء وأنه متى خالف هذه الشروط عزلوه وأخرجوه وهم قادرون على ذلك"[189]. وفي 1805/5/25، قابل عمر بك أحد زعماء الألبان ومندوب خورشيد- السيد عمر مكرم وجرت بينهما مناقشات تناولت مبادئ مهمة مثل حق الشعب في عزل حكامه[190]؛ فقال عمر بك: كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم؟ وقد قال الله تعالى: "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم". فرد عليه عمر مكرم بقوله: "إن أولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، وهذا رجل ظالم، وقد جرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلاد يعزلون الولاة، حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور فإنهم

182- آمال السبكي: أوربا في القرن التاسع عشر فرنسا في مائة عام، عالم المعرفة، جدة، ط1، 1985م، ص 52.
183- بدوي عبد اللطيف: في تقديمه لكتاب محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصرالمرجع السابق، ص (ج).
184- أندريه ريمون: مرجع سابق، ص 331.
185- محمد محمود السروجي: دراسات في تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، مكتبة الإسكندرية، 1998م، ص ص 81، 82.
186- الجبرتي: مصدر سابق، ج6، ص 408.
187- نفسه، ص570.
188- عبد الحميد البطريق: عصر محمد على ونهضة مصر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1999م، ص8.
189- الجبرتي: مصدر سابق، ج6، ص 570.
190- محمد جمال الدين المسدي: المرجع السابق، ص51.

يعزلونه ويخلعونه[191]. ويتفق الباحث مع مَن رأى أن السيد عمر مكرم في مناقشته تلك كان يقرر المبادئ السياسية نفسها التي نادي بها فلاسفة الثورة الفرنسية (سيادة الشعب وحقه في عزل حكامه). ولكن "المؤكد أنه لم يكن متمثلا ولا متمسكا بأية نظرية سياسية من تلك النظريات السياسية الغربية، وإنما جرت روح المناقشة بين الفريقين على أساس الاستناد إلى القرآن الكريم". يضاف إلى ذلك أن الشعب نفسه لم يكن في ثورته تلك متأثرا بأية نظرية من تلك النظريات[192].

ويبدو بجلاء مما سبق أن نخبة الشعب كان لديها رؤية واضحة عن حقوق الشعب وواجبات الحاكم؛ فهاهم أولاء يختارونه ويضعون له الشروط والمبادئ التي يسير وفقها ويقررون أنه من حقهم مراقبته وأنه يجب عليه مشورتهم وإشراكهم في القرارات المهمة، ويؤكدون أن من حقهم عزله كما كان من حقهم انتخابه، تلك كانت أسسا للحكم الرشيد المتحضر، ولا صلة لحملة نابليون بها البتة.

وتجدر الإشارة إلى أن تلك المطالب التي أملاها وكلاء الشعب في اجتماع 12 مايو وسلموا صورتها إلى القاضى أسماها المسيو فولابل "وثيقة الحقوق" تشبيها لها بـ"وثيقة إعلان الحقوق" التي قررها البرلمان البريطاني سنة 1688م، وأيد فيها حقوق الشعب الإنجليزى، وأهمها أن لا يجوز للملك أن يفرض ضريبة إلا بعد موافقة البرلمان. ونقل عبد الرحمن الرافعي عن فولابل إنه ورد في محضر زعماء الشعب الذين قرروا فيه عزل خورشيد وتعيين محمد علي عبارة جديرة بالتفات النظر إليها وهى: "إن للشعوب -طبقاً لما جرى به العرف قديما، ولما تقضى به أحكام الشريعة الإسلامية- الحق في أن يقيموا الولاة، ولهم أن يعزلوهم إذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم؛ لأن الحكام الظالمين خارجون على الشريعة". وكان الشيخ محمد المهدي هو الذي تولى تحرير هذا المحضر[193]. الذي يراه لويس عوض (1915-1990م) "نواة الدستور المصري بكامل معانيه الفقهية والديمقراطية[194].

فإن قيل: إن محمد على أطاح بكل هذا بعد ذلك ولم يلتزم به إلا لفترة وجيزة جدا؛ فالرد: هل طبقت الثورة الفرنسية وحكوماتها المتعاقبة المبادئ التي نادى بها فلاسفة الثورة ورفعتها شعارا لها؟! هل طبق نابليون نفسه تلك المبادئ؟ التى زعم فشر أنه نشرها؟

لقد رأى المصريون في الحملة كابوسا جاثما على صدورهم، تاقت نفوسهم إلى التحرر من نيره؛ ويصف الجبرتي فرحتهم بخروج الفرنسيين وعودة العثمانيين بأنه يوم "عمت المسلمين فيه المسرات، ونزلت في قلوب الكافرين الحسرات، ودقت البشاير، وقرت النواظر.. فلله الحمد والمنة على هذه النعمة"[195].

هذا عن المصريين؛ فماذا عن غيرهم؟ يقول جوستاف لوبون: "أما الأجانب؛ فأحكامهم على الثورة الفرنسية شديدة، ولا عجب؛ فقد أذاقت أوربا -خصوصا ألمانيا- أنواع المحن، قال مسيو فاغيه يخبرنا برأي الألمان: إن فرنسا اضطهدت ألمانيا وازدرتها وأثخنت فيها ونهبتها مدة خمس عشرة سنة باسم الحرية والإخاء، وبحجة هاتين الكلمتين أقامت ديمقراطية مستبدة ظالمة مزعجة مخربة غير صالحة ليقتدي بها أحد"[196]. وهذه هي الحقيقة التي يغفلها أو يتغافلها فشر، وقد ذكرها مؤرخ فرنسي.

191-الجبرتي: المصدر السابق، ج6، ص 412.
192- محمد جمال الدين المسدي: مرجع سابق، ص52.
193- عبد الرحمن الرافعي: المرجع السابق، ج2، ص ص302، 305.
194-لويس عوض: تاريخ الفكر المصري الحديث،ج2،1، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط4، 1987م،ص 101.
195- خرج الفرنسيون من القاهرة في 1801/7/15م ودخلها العثمانيون اليوم التالي 1801/7/16م. الجبرتي: المصدر السابق،ج5، ص ص 201-203.
196- جوستاف لوبون: المرجع السابق، 2011، ص88.

وكما قال جوستاف لوبون: "لا ننكر ما جادت به الثورة الفرنسية على حقوق الأمم، ولكننا قلنا -مع كثير من المؤرخين- إن ما ربحناه، بعد اقتراف كثير من أعمال التخريب في أثنائها، كان لا بد من نيله مع سير الحضارة بلا عناء، وما أعظم ما أصابنا من خسارة مادية وانحلال أدبي لكسب زمن قصير"![197] إن الذي حدث خلال السنوات الثلاث للحملة مضاد لما زعمه فشر، وحُق لكرستوفر هيرولد أن يتساءل: "ما الذي حققته الحملة على مصر غير خسارة الأرواح، والخراب، والقسوة؟ أما بونابرت فقد فتحت له الطريق إلى السلطة". ثم يقرر أمرا مهما يغفل عنه فشر أو يتغافله قائلا: "لقد كان مآل مصر إلى التغير، سواء ظهر بونابرت في سمائها أو لم يظهر قط، وآيات الفن وروائعه في الأقصر والكرنك كان مصيرها إلى الكشف، حتى وإن لم يزحف ديزيه إلى الصعيد، وكانت الرموز الهيروغليفية حتما ستفك، حتى وإن لم يُكتشف حجر رشيد إلا بعد الحملة بسنوات، وكانت قناة السويس ستحفر، وحتى وإن لم يأمر بونابرت بمسح برزخ السويس...صحيح أن كل شر يحمل في ثناياه بعض الخير عرضا، وليس معنى ذلك أن الشر دائما ضروري لجلب الخير"[198]. وفِشر يغفل أو يتغافل مقولة حكيمة وردت –ويالسخرية القدر أنها وردت- على لسان (سفاح عصر الإرهاب في فرنسا) ماكسميليان فرانسوا روبسبيير[199] Maxmillian Francois Robespiere (1758-1794م) حين قال: "ما من أحد يحب المبشرين المسحلين"[200]. هذا على افتراض أن نابليون مبشر بقيم ومبادي إنسانية عليا، وهذا قطعا محض ادعاء.

ويبدو بجلاء أن هربرت فشر ممن ينطبق عليه مقولة جوستاف لوبون: إن "المؤرخ يختار -عمدًا أو سهوا- ما يلائم أفكاره السياسية والدينية والأدبية، ويؤلف من هذه الوثائق كتاب تاريخ بعيدًا عن الإنصاف"[201].

---

[197]- نفسه، ص221

[198]- كريستوفر هيرولد: المرجع السابق، ص ص402،403.

[199]- روبسبيير: ولد في باريس، وفي عام 1781م أصبح محامياً، وانتخب سنة 1789م لمجلس طبقات الأمة، وصار أحد زعماء حزب اليسار. وظل نفوذه يزداد حتى أيام المؤتمر الأهلى وحكم الإرهاب، حين عين عضوا في لجنة الأمن العام، ثم أصبح رئيسا لها وانفرد بالسلطة، وأصبح الحاكم المطلق في فرنسا، وحين خاف كثير من أعضاء المؤتمر الأهلي على أرواحهم من فتك روبيسبيير، ورأوا أنه لا حاجة للإرهاب وإراقة الدماء مكروا بروبسبيير بانقلاب ترميدور العسكري وأرسلوه إلى المقصلة؛ فأعدم بها في 10 ترميدور الموافق 29 يوليو عام 1794م. فشر: نابليون، المرجع السابق، ص ص 20، 21.

[200]- ليلى عنان: الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير، المرجع السابق، ص 66.

[201]- جوستاف لوبون: المرجع السابق، ص89.

الـخـاتـمـة

يمكن استخلاص النتائج التالية:

- لا ريب أن عوامل الوراثة والنشأة الأولى والتربية والتعليم التي تلقاها فشر كان لها الدور الفاعل في بناء شخصيته؛ فوالده كان من الموظفين الكبار الذين خدموا العائلة المالكة البريطانية، وتفتحت عيناه على هذا الوضع، واختلط بأطفال العائلة المالكة وتلقى تعليما يليق بتلك المكانة في بلاده، ثم سافر إلى فرنسا وتلقى تعليما على يدي علماء بارزين مثل إرنست رينان، وبعد عودته إلى بلاده تقلب في سلك الوظائف المهمة والعامة حتى تقلد منصب الوزارة، ومَثَّل بلاده في محافل دولية، كل ذلك يعطي مفاتيح فهم شخصية فشر وتكوينه الفكري. فبدا إنجليزيا قحا في كتاباته التي طغت عليه فيها شخصية السياسي البريطاني ورجل الدولة الإمبريالي أكثر من شخصية المؤرخ الموضوعي؛ ففاق الزهو بساسية بلاده وبالحضارة الأوربية حدود الموضوعية؛ بل إن تاريخ بلاده شاهد على أن ساسة بريطانيين كانوا أكثر موضوعية منه – رغم أنهم ليسوا مؤرخين- واستقالوا احتاجا على بعض سياسات بلادهم.

- لقد استهدف مترجمو بعض كتب فشر أن يجنبوا القارئ العربي البلبلة التي تحدث حين يقرأ لمؤرخين دون المستوى، ولكن الحاصل أن القراءة لفشر لا تجنب البلبلة بل توقع فيها.

- من الأهمية بمكان إعادة النظر حول الإطراء الذي حظي به فشر من قبيل: أنه المؤرخ الذي امتاز بـ(البحث الدقيق، والتنزه عن الهوى، الاتزان، النضج، الإبداع، العلم الغزير، الموضوعية). ومن خلال البحث يتحفظ الباحث على كثير من هذه النعوت.

- ليس في معالجة فشر العمق المأمول ولا الموضوعية المنشودة كالتي نراه لدى مؤرخين غربيين كأرنولد توينبي أو أندريه ريمون أو جوستاف لوبون أو كيرستوفر هيرولد أو بيتر جران أو هنري لورنس وغيرهم؛ إذ لم يتسطع فشر أن يسمو فوق أهواء انتمائه بل يمكن وصفه بأنه عنصري. وإن معالجته للحملة على هذا النحو جعلته يبدو وكأنه سياسي إمبريالي يرتدي عباءة مؤرخ.

- ما ذهب إليه فشر -على الإجمال- في معالجة الحملة الفرنسية على مصر وما يتسم به من النظرة الاستعلائية وإزدرائه لمصر والمصريين والنظرة بدونية إليهم- ليس جديدا على كثير من المؤخين الغربيين فلقد سبقه كثير وخلفه أيضا كثير.

- من الأهمية بمكان مطالعة ما كتبه فشر وأترابه، لا لنعرف منها تاريخ بلادنا، ولكن لنعرف كيف ينظرون إلينا؟ وماذا يكتبون عنا؟ لنكون على بينة، ولنرد ولنصحح لهم ولغيرهم ما يقعون فيه من أخطاء.

- وقع فشر مرارا في فخاخ الدعاية النابليونية، وكتب وهو متأثر بها سواء علم أو لم يعلم، وهو الأمر الذي انتقد أرنولد توينبي حدوثه من قبل بعض المؤرخين، وأحسب أن فشر من هؤلاء، فثمة سجن فكري عاش فيه فشر وتصورٌ للقصة قبل سردها على نحو ما مر في البحث في جوهر رؤيته لحملة نابليون ونتائجها ونظرته لمصر وأهلها ..إلخ.

- لقد تماهي فشر إلى أبعد حد مع غلاة المؤمنين بأسطورة نابليون فضخم كثيرا من نتائج الحملة على نحو تفوق به على أولئك المتعصبين لنابليون؛ فكتب تاريخ الحملة كما تمناه أن

يكون؛ لا كما كان فعلا! مثل زعمه أن حملة بونابرت أعادت مصر لأحضان أوربا، وهذا يعني أن الأماني والتخيلات لدى فشر قد غلبت أحيانا الحقائق والوقائع التي حدثت على الأرض. لأن مصر لم تكن جزءا من أوربا ولم تنجح حملة نابليون الفاشلة في إعادتها إلى أوربا!

- يبدو بجلاء - من خلال ما تمت مطالعته من إنتاج فشر العلمي - أنه استخدم التأريخ ووظفه لخدمة أمته وحضارته بتحيز واضح وباستعلاء عنصري بيّن، وصار من الأهمية بمكان لفت الانتباه إلى مثل هذه الكتابات.
- ربما لا يخلو كتاب تاريخ من مآخذ يمكن أن يستدركها بعض الباحثين عليه، ولكن شتان بين مآخذ يمكن حدوثها بعد أن يستفرغ الباحث جهده وبين تلك التي تزل فيها قدم الباحث نتيجة الهوى أو التقصير؛ ويمكن القول أن فشر وقع منه الأمران.
- يبدو بجلاء أن معالجة فشر للحملة الفرنسية على مصر غير متوازنة، فلو أنه ذكر جرائم الحملة وذكر أيضا ما يراه مزايا وإيجابيات ربما كان من الصعب وصفه باللاموضوعية، أما وإنه يرى الأمور ويعالجها بعين واحدة؛ فهذا ليس شأن المؤرخين الذين يوثق فيهم؛ ففي الوقت الذي تحدو الموضوعية بمؤرخ فرنسي مثل جان جويل بريجون أن يشبه ممارسات جيش بلاده في مصر بالجيش النازي-حينما أحرق دمنهور وقتل كثيرا من أهلها- بـ(الأورادور)، التي أصبح اسمها رمزا للوحشية الألمانية والبربرية النازية، ولا نجد أي ذكر لمثل تلك الجرائم ولا لغيرها لدى فشر، فلا يُفهم من هذا إلا أنه تعمد أن يتجاهل وأن يُغفل ذكر جرائم حملة نابليون ووحشتيها، وفي الوقت نفسه يخترع مزايا لها استنكرها مؤرخون فرنسيون موضوعيون.
- لقد راجع هذا البحث معالجة فشر لموضوع واحد فقط، والمأمول أن تكون هذه بداية تدعو الباحثين لمزيد من البحوث والدراسات عن حياته ومؤلفاته وآرائه وأفكاره ودوره العلمي والتعليمي والسياسي الذي لم يقف عند حدود الجزائر البريطانية بل تخطاها.

مصادر البحث ومراجعه

أولا: مصادر ومراجع عربية:

- آمال السبكي:أوربا في القرن التاسع عشر فرنسا في مائة عام،عالم المعرفة،ط1،جدة، 1985م.
- أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، القاهرة، 1979م.
- أحمد حافظ عوض: فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت في مصر، مطبعة مصر، 1925م.
- أحمد زكريا الشلق: الحداثة والإمبريالية، دار الشروق، القاهرة، 2006م.
- أحمد شفيق: حوليات مصر السياسية، ج1، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 2012م.
- أرنولد توينبي: مختصر دراسة التاريخ، ج4، ترجمة فؤاد محمد شبل، المركز القومي للترجمة، عدد1717، القاهرة، 2011م.
- أسامة محمد أبو نحل وناجي صادق شراب: قراءة في أهم مواد صك الانتداب البريطاني على فلسطين رؤية تاريخية سياسية، كلية الآداب، جامعة الأزهر، غزة، فلسطين، د.ت.
- أندريه ريمون: المصريون والفرنسيون في القاهرة 1798-1801، ترجمة بشير السباعي، عين للدراسات والبحوث،2001م.
- بيتر جران: الجذور الإسلامية للرأسمالية مصر 1760-1840، ترجمة محروس سليمان، مراجعة رؤوف عباس، دار الفكر للدراسات، القاهرة، 1993م.
- ج. كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ترجمة: فؤاد أندراوس، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1998م.
- جوستاف لوبون: روح الثورات والثورة الفرنسية، تعريب: عادل زعيتر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2011م.
- حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، دار المعارف، القاهرة، 1984م.
- دي بوا– ايميه جولوا: رحلة إلى أعماق الدلتا، موسوعة وصف مصر،ج3، دراسات عن المدن والأقاليم المصرية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2002م.
- رءوف عباس: مصر في القرن التاسع عشر، دارالنهضة العربية، القاهرة، 1984م.
- رياسة الجمهورية: مكتب الرئيس للأبحاث الاقتصادية: المملكة المتحدة النظام السياسي والاقتصادي، مصلحة الاستعلامات، القاهرة، د. ت.
- عباس محمود العقاد: برنارد شو، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2013م.
- عبد الحميد البطريق: عصر محمد على ونهضة مصر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1999م.
- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، الأجزاء: الثالث والرابع والخامس والسادس، تحقيق: عبد العزيز جمال الدين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط2، القاهرة، 2012م.
- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية،ج1، مكتبة الأسرة، القاهرة، 1998م.
- ـــــــــــــ: تاريخ الحركة القومية،ج2، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2000م.
- ـــــــــــــ: تاريخ الحركة القومية،ج3، عصر محمد علي، مكتبة النهضة المصرية، ط1، القاهرة، 1930م.
- ـــــــــــــ: مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية، مكتبة النهضة المصرية، ط4، القاهرة، 1962م.
- عبدالرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة،ج1،المؤسسةالعربية للدراسات والنشر،بيروت، 1984م.
- ـــــــــــــ: موسوعة المستشرقين، ج1، دار العلم للملايين، ط3، بيروت، 1993م.

- عبد الله الشرقاوي: تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلاطين، تحقيق: رحاب القاري، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996م.
- عفاف لطفي السيد مارسو: مصر في عهد محمد علي، ترجمة: عبد السميع عمر زين الدين، المركز القومي للترجمة، ط2، القاهرة، 2016م.
- علي محمد علي: ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية،ج1، مركز دراسات الشرق الأوسط، د.ت.
- فرانسوا فوريه وديني ريشيه: الثورة الفرنسية، ترجمة: زياد العودة، ج2، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2012م.
- فوروييه: مصر والحملة الفرنسية، وصف مصر، ج1، المصريون المحدثون، ترجمة: زهير الشايب، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2002م.
- كاثرينا ممسين: جوته والإسلام رؤية قديمة لعالم معاصر، ترجمة شيرين حامد فهمى، مكتبة الشروق الدولية، د.ت.
- كوثر قديري: وعد بلفور في سياقه وتفاصيله، السفير العربي، عدد 217، 17 نوفمبر 2016م.
- لطيفة سالم: مصر في الحرب العالمية الأولى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1984م.
- لمعي المطيعي: اليهود والفلسطينيون أرنولد توينبي، أبحاث الندوة الدولية (القدس التاريخ والمستقبل) جامعة أسيوط، مصر، 1996م.
- لويس عوض: تاريخ الفكر المصري الحديث، ج1،2، مكتبة مدبولي،ط4،القاهرة، 1987م.
- ليلى عنان: الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة، دار الهلال، القاهرة، 1992م.
- ـــــــــــ: الحملة الفرنسية في محكمة التاريخ، ج2، دار الهلال، القاهرة، 1998م.
- ـــــــــــ: الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير، دار الهلال، القاهرة، 1998م.
- مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ج1، ط3، القاهرة، 1985م.
- محمد جمال الدين المسدي: مذكرات في تاريخ مصر الحديث، مكتبة الجهادالكبرى، د. ت.
- محمد عبد الحميد الحناوي: وثائق الحملة الفرنسية ١٧٩٨-١٨٠١م مصدر لتاريخ مصر الحديث، نور بوك، د.ت.
- محمد عبد الرحمن برج: التاريخ العربي الحديث والمعاصر، دار التعليم الجامعي، الإسكندرية، 2010م.
- محمد عمارة: الإسلام في عيون غربية، دار الشروق، القاهرة، 2008م.
- ـــــــــــ: شهادات غربية لتراث الاسلام، هدية مجلة الأزهر، شعبان1436هـ (مايو2015م).
- محمد فؤاد شكري: الصراع بين البرجوازية والإقطاع، ج1، دار الكتب والوثائق القومية، ط٢، القاهرة، 2008م.
- ـــــــــــ: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2013م.
- محمد محمود السروجي: دراسات في تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، مكتبة الإسكندرية، 1998م.
- محمود علي سرائب: القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، النجف، العراق، 2021م.
- ناصر إبراهيم: شهادة تاريخية مؤجلة لأحد ضباط الحملة الفرنسية، الحملة الفرنسية على مصر، مراجعة وإشراف مديحة دوس، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2005.
- نقولا الترك: ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والممالك الشامية، موسسة هنداوي، القاهرة، 2012م.
- ـــــــــــ: مذكرات نقولا الترك، تحقيق عبد العزيز جمال الدين، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2015م.

ـ هربرت فشر: نابليون، تعريب: محمد مصطفى زيادة ومحمد نوفل، دار الفكر العربي، القاهرة، 1952م.
ـ ـــــــــــ: تاريخ أوربا في العصر الحديث، 1789-1950، تعريب: أحمد نجيب هاشم، و وديع الضبع، دار المعارف، القاهرة، 1993م.
ـ هنري لورنس: الحملة الفرنسية في مصر، ترجمة: بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، 1995م.
ـ ـــــــــــ: الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر، ترجمة: بشير السباعي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2015م.
ـ هيلين آن ريفلين: الاقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن 19 ترجمة: أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسيني، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2016م.
ـ يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، ط5، القاهرة، 1986م.
ـ يوهان جوته: فاوست، ترجمة محمد عناني: موسسة هنداوي، 2013.
ـ ـــــــــــ: أحزان فرتر، ترجمة أحمد رياض، مؤسسة هنداوي، 2020م.

ثانيا: دوريات:

ـ صحيفة الخليج، (أحمد زكريا الشلق: الشرق العربي مُستهدف دائماً من الغرب)، بتاريخ 2011/7/9.على هذا الرابط: https://www.alkhaleej.ae/2011-07-08/%D8%AF

ثالثا: مراجع أجنبية:

- Dykstra, D.: The French occupation of Egypt, Modern Egypt, - From, 1517 to the end of the twentieth century, From The Cambridge History of Egypt, V. 2,1998.

-Fisher, H: A History of Europe, Edward Arnold LTD, London, 1936.

----------: Napoleon, Henry Holt and company, London, 1913.

-Laurens, H.: L'Expédition d'Egypte, 1798-1801,Armand Colin, Parism, 1989.

- Murray G.: Herbert Albert Laurens Fisher (article, Obituary Notices of Fellows of the Royal Society, Published By: Royal Society,
Vol. 3, No. 10 , 1941.

- Newby, P.H. : The Egypt Story: Its Art, Its Monuments, Its History, American University in Cairo Pre, 1986 .

- Ogg, D. : Herbert Fisher 1865 -1940: A Short Biography, Edward Arnold & Co, Copyright First published, London, ,1947.

-Savary, C. E: Lettres sur l'Égypte, 3 vol. Paris an VII (1798) .

Herbert Fisher and his approach towards the French campaign against Egypt Critical Study

By
Dr. Tarek El-Sayed Selim
Lecturer of modern and contemporary history,
Faculty of Arts, Menoufia University

Abstract:
This research addresses the problem of the extent to which the writings of many Western historians deserve the aura of appreciation that many Arab researchers are accustomed to granting them. Through a review of one of the leading British historians, Herbert Fisher (1865-1940 AD), when dealing with a very exciting topic, which is the French campaign against Egypt (1798-1801 AD). Fischer is a prolific historian who holds a high status among many historians. At the table of research, criticism, and review, we will see the extent to which Fisher is worthy of what he was described as (meticulous research, freedom from whims, balance, maturity, creativity, abundant knowledge, objectivity). Only one topic was chosen, and his treatment of it was followed in two of his most famous and widely circulated books. The first: Napoleon, and the second is his most famous book: A History of Europe.
When the researcher reviewed Fesher's treatment, he found that there were many issues that he could address on Fesher. He selected those that he thought were most worthy of review and criticism. In order not to bloat the search. It should also be noted that the researcher will not be satisfied with only monitoring the issues that he examines in Fasher; Rather, he will strive to search for the underlying reasons and reasons behind his treatment the way it was. In examining Fasher, the researcher will rely as much as possible on Western testimonies, especially French ones. It is

difficult for those who say it to be accused of prejudice against their country. This is stronger for Hajj and is more effective for Hajj. When a witness from its people testifies, and the witnesses relied upon are many of them; Scientists participated in the campaign and recorded their observations in the encyclopedia (Description of Egypt), including leaders and soldiers who wrote down their memoirs, in addition to the history of Al-Jabarti and the book of Nicholas Al-Turk. In addition to the writings of Western historians known for the depth of their studies, such as: Gustave Le Bon, Andre Raymond, Henry Lawrence, Peter Gran, Christopher Herold, and others. In addition, Egyptian scholars have contributed extensively to studying Napoleon's campaign, as will be mentioned in the research

Through the research, it will become clear to what extent Fisher's treatment of the subject of the French campaign against Egypt had the desired depth and objectivity.

<u>Key words:</u> The magnates of British historians - Herbert Fisher - the French campaign against Egypt - the modern history of Egypt - the modern history of Europe - reviews - critical studies.